المرأة العربية

في جاهليتها وإسلامها

ألفه

عبد الله عفيفي
المحرر العربي لديوان جلالة الملك

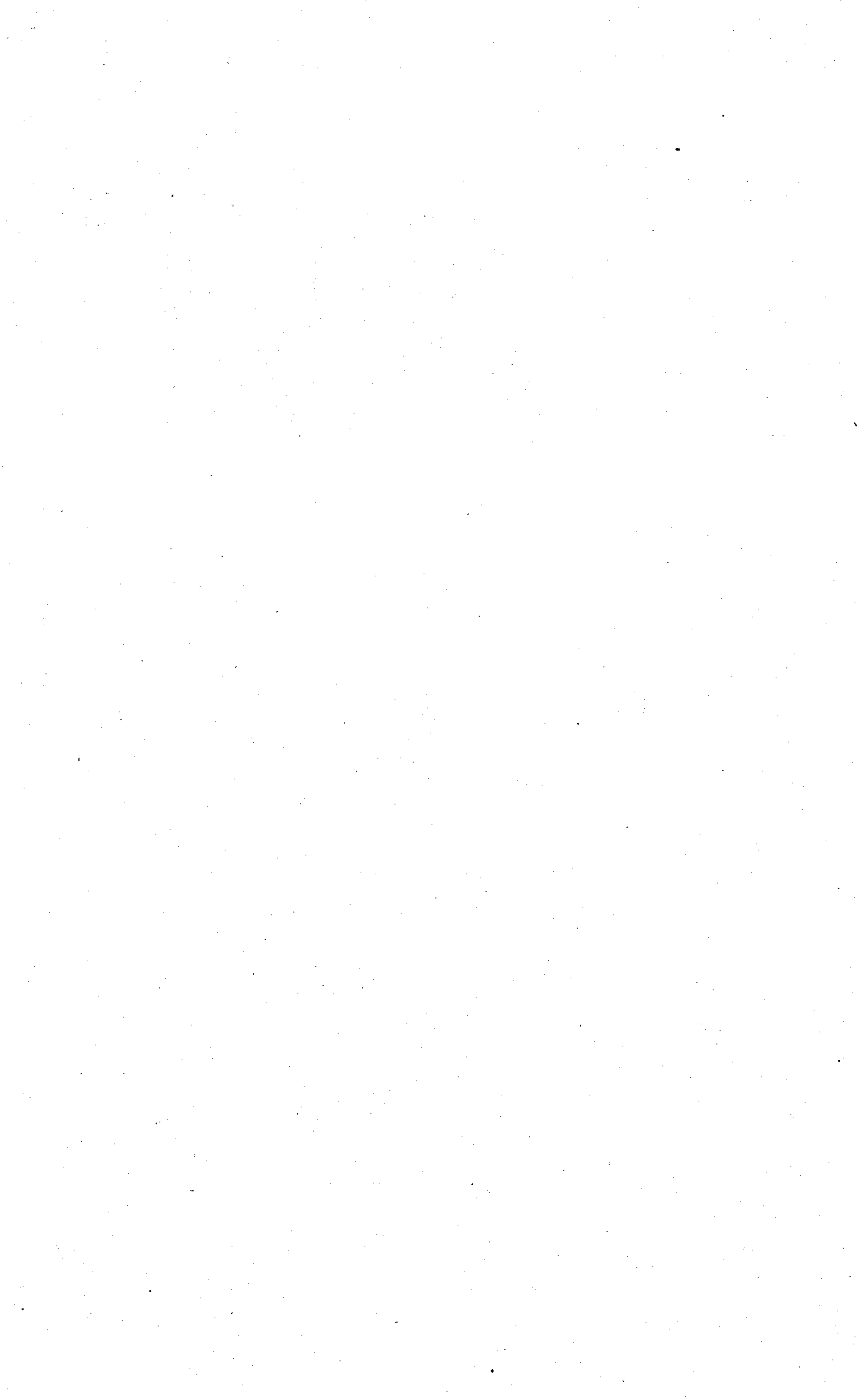
الجزء الثالث

(الطبعة الأولى) سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

النـــاشر

مكتبة الثقافة

المدينة المنورة — المملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم

الأمـة العربيـة

بين الرأى والهوى

كان على العرب بعد أن لحق رسول الله بربه أن يبتغوا الوسائل لنشر دينه وإذاعة دعوته، وكان عليهم حين لا تجد الحجة البالغة سبيلاً إلى القلوب أن يجعلوا السيف كفيلاً بنشرها فى مشارق الأرض ومغاربها، وبقدر ما كانت الأمانة الملقاة على عواتقهم فادحة والغاية بعيدة كان جهدهم كذلك فادحاً وهمتهم بعيدة، فقد وثبوا وثبة رجفت لها قوائم الأرض، فلم يبق سهل ولا جبل، ولم يبق قطر ولا مصر، ولم يبق عرش ولا تاج إلا تبدل حالاً بعد حال؛ وكذلك صاروا يضربون فى مناكب الأرض، فمن وادعهم ودخل فى ذمتهم عاهدوه على الوفاء له والذود عنه، ومن حشد لهم ونهد لقتالهم فرقوا جمعه ومزقوا شمله ونكسوا عرشه وتولوا حكومته. وما كانت قوتهم التى أخضعت لهم الرقاب وذللت لهم الصعاب فى وميض سيوفهم ولا عديد جنودهم ولا قوة سواعدهم ولا نفاذ آرائهم فما من أمة ممن ناصبوها الحرب إلا وهى أشد منهم قوة، وأكثر عدداً، وأسنى تدبيراً، وأنفذ تفكيراً، ولكنها كانت فى قلوبهم التى ملأ الإيمان أقطارها فلم يَدَع فيها مطمعاً فى أمل ولا مستمتَعاً بمتاع، وفى نفوسهم التى استمكنت العفة من صميمها فلم تَفْتِنْها المآرب ولم تلوثها الشهوات، وفى مشاعرهم التى لا تَرِيعُ لآية من آيات الكتاب إلا ترقرقت فى العيون عَبْرةً جارية، وتأججت فى الصدور ناراً حامية. تلك كانت قوتهم التى أعزهم بها الإسلام فآمنهم من خوف، وجمعهم من شتات، وجعلهم خير أمة أخرجت

للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . على أن تلك القوة المُرَوِّعة كان يساورها خطر مُحِيق من الفتنة بما حوت الممالك المفتوحة من عيش ناعم، ومُلك باسم، وزهو ولهو، وعزف وقصف، وما وراء ذلك مما يُفْسِد سرائر القوم، ويكدر ضمائرهم ويطفئ نور اليقين من قلوبهم، ويخمد نار الحميّة من صدورهم

وكان الإشفاق من وبال ذلك الداء أشد ما خامر قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، وفى سبيله ألقى على السابقين الأولين من المسلمين كلمته الخالدة « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ومن أجله حرّم على رجال المسلمين أن يتحلوا بالذهب وقال للمتختم به : « يعمِد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده » وحرَّم عليهم لبس الحرير وقال : « إنما يلبسه من لا خلاق له » ، وأشباهُ ذلك، مما كبح به الرسول جماح الفتن وأخمد به جمرة الشهوات كثير لا يناله التعداد

وكان ذلك الإشفاق مما يهيج اللوعة والحسرات فى صدر الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . ومن قوله وهو مرتكس فى مرض موته يخاطب المهاجرين من أصحابَ رسول الله : « والله لتتخذُن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمُن النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لأن يُقدَّم أحدكم فتُضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا »

وبينا كان الفاتحون يمعنون فى أعماق فارس والروم وكانت مغانم العدو وسباياه تتوارد على الخليفة الأيّد عمر بن الخطاب — بينا كان ذلك كله كان عمر فى شُغُل بما عسى أن يصيب العربَ من تلك الدنيا المقبلة والحياة المجْلُوَّة، وهو الذى يقول بعد أن وطئ المسلمون أعراف مدائن كسرى « ليت بينى وبين فارس جَبَلاً من نار لا نصل اليهم ولا يصلون إلينا »

وكانت رهبة الدين وهيبة الخلافة لا تزالان تعقدان على عيون العرب حجاباً لا ينفذ النظر منه إلى متاع الحياة ، وكانوا لا يزالون من نشر دينهم على غاية لم يبلغوها وهي غاية تملك عليهم خواطر نفوسهم ومدارج أنفاسهم فلا يشعرون إلا بها ولا يَحْيَوْن الا لها ولا يلمحون ما دونها فلم تأخذهم لذلك فتنة ولم تفتنهم شهوة ، ولم تبهرهم زينة . ولعلك تعلم أن مما أثار الناس على الشهيد المظلوم عثمان بن عفان وحملهم على اقتحام داره وسفك دمه ميله قليلاً الى ترفيه نفسه وساقوا من الأمثلة لذلك تملية بيته وتزيين جدرانه واتخاذ الوصائف لخدمته . وكانت فتنة عاتية قاتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً وأذاقوا بعضهم بأس بعض ولم تنكشف حتى عصفت بعصر الخلافة وذهبت بجيل النبوة

وجاءت الدولة الأموية، وفي عهدها أخذت رهبة الدين تحسر عن قلوب العرب ، وقيلت أقوال لم تكن قبلُ تقال واجتُرحت أفعال لم تكن من قبل تفعل ؛ وأي قول أشنع من أن يقوم شاعر مسلم بين سمع المسلمين وبصرهم فيقصّ عليهم حديث اعتدائه على أعراض المسلمات ثم لا يجد من الناس دفعاً ولا استنكاراً . بل أي جرم أبشع من أن يقف شاعر نصراني بين يدي الخليفة الأموي فيسخر من شريعة الإسلام بقوله :

ولست بصائم رمضان عمري ... ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائل كالعير يوماً ... قبيل الصبح : حي على الفلاح
ولكني سأشربها صبوحاً ... وأسجد قبل منبلج الصباح

ثم لا ينثني من لدن الخليفة الا مثوباً موفوراً

وهل أتاك حديث أبناء النبي وأحبائه الذين عاهد الله المسلمين على مودتهم بقوله تعالت آيته « قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلا المودة في القربى » أرأيت كيف قتلهم رجال هذه الدولة على مدرجة الطريق طعناً بالرماح وحزاً بالسيوف وصبراً

بالظمأ ثم ساقوا نساءهم سَوَاهِمَ الوجوه حواسر الرءوس تحملهم الإبل المُعَرّاة من بطحاء كربلاء الى مقر المُلك الأموى بدمشق

والمسلمون بمسمع وبمرصد لا جازع منهم ولا متصدع

على هذا السنن من العقوق للاسلام سار الأمويون فى غزو مدينة رسول الله واباحتها وهدم الكعبة واحراقها

وكان أكبر الظن بالقوم وتلك حالهم فى انتهاك الحرمات أن يستمتعوا بكل ما حوت البلاد المفتوحة من لذة ونعيم لولا أن معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى أمية وفحل أجمتهم نفخ فى العرب روح العصبية العربية وحكم بهم الأمم على أنهم السادة وغيرهم المسودون وأنهم الآمرون وغيرهم المأمورون فحجزهم بذلك عن مخالطة من يلونهم من الأمم إلا مخالطة الحذِر المترفع الذى يرى الاتصال الوثيق بمواليه منقصة وعاراً

ذلك الى أن العرب قضوا الشطر الأكبر من ذلك العهد وهم فرق متناحرة ، بعضهم لبعض عدو ، ليس منهم الاّ من كفّر خصمه واستحل دمه ؛ فهناك أهل الشام ومَن حولَهم من الأعراب يشايعون بنى أمية ، وهناك أهل العراق يبثون الدعوة لبنى هاشم ، وهناك أهل الحجاز يلوذون بابن الزبير ، وهناك الخوارج الذين خرجوا على الخلافة الموروثة والملك المغصوب ؛ فأى أولئك يتسع له الوقت ليمرح فى مجال اللهو ويأخذ بأسباب النعيم

والحق أنّ شيئاً من وسائل اللهو جُلب الى الأمصار الثلاث — دمشق والبصرة والمدينة ، وتذوّقه الخواص من سادات العرب حين اطمأن المُلك وانقطعت أواصر الفتن ، ومن هذه الملهيات فن الغناء ، جاء به جماعة من موالى الفرس وعلموه القيان الفارسيات فأسمعن العرب أشعارهم موقعة على النغم الفارسى ؛ على أن

ذلك لم يَعْدُ القليل من ذوى الجاه يسمعونه فى كثير من التجمل والاعتدال

وكان حكماء بنى أمية وعظماؤهم يتواصون باجتناب السماع وما يستدعيهِ من تبسط وابتذال . وهذا الوليد بن عبد الملك يطرق سمعه غناء مغن فى عسكره ويرى جارية من جواريه تصغى الى الصوت فيدعو بالمغنى ويأمر بخصائه ثم يأمر بخصاء مخنثى المدينة الذين يغشون الديار ويغنون نساءها بالصوت المخنّث والكلام المبذول ؛ وهذا مَسْلَمة بن عبد الملك يستمع غناء المغنيات فى قصر أخيه الخليفة سليمان فيزجره في غير رفق ولا هوادة فلا يسع الخليفة إلا أن يطوى بساط الغناء ثم لا يعود إليه

وكان من سنة المستمعين من خلفاء بنى أمية أن يجلسوا وبينهم وبين ندمائهم ستر مضروب تصوناً واستتاراً واحتفاظاً بما يطلبه الملك من هيبة ووقار. ولقد مكّن الخليفةُ الخليع الوليد بن يزيد لخصومه من أهل اليمن أن يهتكوا عليه ستر الخلافة ويقتحموا عليه دارة الملك ويقتلوه جهرة بين قومه وعشيرته لأنه انحرف عن سبيل آبائه الى سبيل اللهو والخلاعة والابتذال . وفى ذلك يقول قائلهم

قتلنا الفارس المختال لما ... أضاع الحق واتبع الضلالا

ألا أبلغ بنى مروان عنى ... بأن الملك قد أودى فزالا

ولم يكن للجوارى فى ذلك العهد شأن ولا خطر، فلم يُتخذن الا قهارمَ للخدمة أو سرارىّ للاستيلاد ؛ وهم يسمون الجارية « جَفن سلاح » تشبيهاً لها بغمد السيف الذى لا شأن له وانما الشأن لما فيه . وقد ابتكر لهم هذه التسمية هَمّام بن غالب الفرزدق فى قوله وقد ماتت جارية حامل له :

وجفن سلاح قد رزئت فلم أَنُح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا

وفى جوفه من دارم ذو حفيظة ... لَوَ انَّ المنايا أمهلته لياليا

وكانوا ينكرون على الهُجَناء — أبناء الإماء — أن يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة ! وقد زجر هشام بن عبد الملك زيدَ بن على عن طلب الخلافة بقوله « بلغنى أنك تطلب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة !

وكان مَسلمة بن عبد الملك أشجع اخوته وأبعدهم همة ، ورغم ذلك دُفِع عن الخلافة دونهم لأنه هجين

وكانت المرأة العربية بفضل تلك العصبية العربية فى الذِّروة والسَّنام من الإعزاز والاكرام . فقد أصبحت تجر أذيال النعمة بين خدمها ووصائفها وترفع أعلام العزة بين آلها وذويها من الخلفاء والأمراء والقادة والولاة ومَن اليهم من كل ذى موقف مشهود ومقام محمود

ولم يؤثر ذلك النعيم الذى اجتَلَتْهُ المرأة العربية فى شىء من نقاء فطرتها ولاصفاء طبيعتها ولا قوة نفسها ولا توفرها على تربية أبنائها لأن العصبية العربية استبقت للرجل حميته وغيرته وعفته ، والرجل مرآة المرأة

على أن هذه العصبية التى صانت نفوس العرب عن التهور فى ضلال الشهوات كانت مزلق الأمويين الى السقوط الذى لا قيام بعده

فان الفرس الذين أوطئهم العرب مواطن الخسف وأوردوهم موارد الهوان لم يطيقوا القرار على ذلك طويلاً . وكيف يطيقونه وهم أهل الرأى والعلم والتدبير والمدد ؟ وكيف يقرون وقد وجدوا فى صفوف العرب ثغرة يقاتلون منها الأمويين باسم الدين ؟ أولم يتتبع الأمويون سلالة النبى بالقتل والصلب والحبس والتشريد ؟ فمالهم لا يغضبون لآل النبى ويثورون بهم ويتخذون من دمائهم وأشلائهم سهاماً مسدودة على أعدائهم ؟ أوليس قميص عثمان المخضب بدمهِ هو الذى جمع لمعاوية الجموع وساق له الجيوش حين نصبهُ للعيون بمسجد دمشق حتى لبس به قميص

الخلافة ؟ إذاً فلتكن الدماء المراقة على بطحاء كربلاء هى التى تدك عروشهم دكاً ! والفرس أعرف أمم الشرق القديم بتدبير المكايد وتنظيم الثورات ، ولا تنس أن العصبية العربية أرجعت العرب الى قديم أمرهم قبل الاسلام من فُرقة وشتات ، فبعد أن كانوا جميعاً قلباً واحداً تهزه كلمة واحدة وتدفعهُ عقيدة واحدة وتجتذبه غاية واحدة أصبحوا شعوباً وقبائل ! فهنالك قحطان وعدنان ، وهنالك مضر وربيعة ، وهنالك قيس وتميم ، وهنالك فرعا قريش من أمية وهاشم ، وكل منهم يفتخر بعزه القديم ومجده الصميم . وفى تفاريق هذه الفرقة جمع الفرس شملهم وألفوا وحدتهم وأحكموا مادتهم وجمعوا عديدهم ثم استاقوا الجيوش الزاخرة من إقليم خراسان فسارت حتى التقت بجيوش بنى أمية على نهر الزاب ولم تكن الا جولة بعد جولة حتى انتكث شمل الأمويين والتاثت صفوفهم وتبددت جماعتهم وفر خليفتهم حتى لقى مصرعه فى مصر ، وعلى أنقاض ذلك الملك الدابر قامت خلافة بنى العباس

وكان مُلك بنى العباس مُلكاً فارسياً يعلوه خليفة عربى ، فالفرس هم ركن الخلافة ودعامتها ، وهم وُلاتها وساستها ، وهم كفاتها وقادتها ، وهم مشيروها ووزراؤها ، وهم مفكروها وعلماؤها ، وهم كتابها وشعراؤها ؛ وهم مُغَنّوها وندماؤها . وانتقلت الخلافة من بلاد العرب الى العراق الفارسى فأصبحت بغداد خلفاً من المدائن

وأراد الفرس أن يخمدوا آخر جذوة من الحمية العربية وأن يقطعوا آخر عقدة من العصبية العربية فأجلبوا عليهم بكل ما يوهن النفوس ويُصبى القلوب من سماع وشراب وكواعب أتراب ، وأغرقوهم فى بحر طامٍ من السَرَف والترف والزهو واللهو والمحارم والمآثم ، ولم يمض غير قليل حتى راح العرب يخطِرون فى مطارف الفرس ويلعبون فى ملاعب الفرس ويشربون فى مشارب الفرس ويتأدبون بآداب الفرس ويتخلقون بأخلاق الفرس . والمرأة والرجل كقوتى الكهرباء إذا تأثر أحدهما تأثر الآخر ، وكذلك بدأت المرأة العربية تتأثر

وكان لتلك المرأة منزلة فى القلوب تعنو لها الوجوه وتطمئن دونها النفوس، ولم يكن مرجع ذلك لما لها من جمال ودلال وغضارة ونضارة وخلابة ودعابة، فما كانت من ذلك فى قليل ولا كثير، ولكنها كانت فيما تفردت به بين نساء العصور الأولى من سمو الروح الى أبعد مرتقى، وصفاء النفس الى أتم غاية، وكان من أثر ذلك ما ذاع عنها من نبل وسناء، وعزة وكبرياء، وجلال فى الطبع والخلق، وترفع فى القول والفعل، واسعاد للزوج والولد، حتى كان من ثمرتها تلك الأمة التى جمعت أطراف الأرض وملكت نواحى الأمم فى أقل من خمسين عاماً . ومثل تلك المرأة اذا انحرفت عن المَحَجّة وانثنت عن الغاية وأسَفَّت الى اللهو واستراحت الى الشهوات خمد منها روح السمو وانهتك عنها ستر الجلال، وذلك ما قاد المرأة العربية الى شفير الهاوية

وكانت أمور صرفت الرجل العربى عن المرأة العربية بعد أن كانت عينه التى بها يبصر، ويده التى عليها يعتمد، ونفسه التى بشعورها يشعر، وقلبه الذى بوعيهِ يعى؛ فلما أحاطت شهوته بعقلهِ وغلبت مجانته على دينهِ وجد عن امرأتهِ مصرفاً، ثم ما زالت الصلة تهن والعقد تُحَلّ حتى استحال عدواً لها يأخذ عليها مدارج أنفاسها ويحصى عليها لحظات عينها ونبرات صوتها وخطرات نفسها، وكان أشد ما فَتَنَ الرجلَ فى نفسهِ وغلبهُ على عقله وصرفهُ عن امرأته ثلاثة أشياء

الأول — الجوارى اللواتى سباهن العرب من مختلف الأقطار والأمصار

الثانى — الديارات[1] التى بثها الروم والسريان وأشباههما فى تفاريق البلاد لصرف العرب أولاً عن قوميتهم وأخيراً عن دينهم

الثالث — ذيوع البغاء وأمثال البغاء فى حواضر العراق

وسنختص كلا من هذه الثلاثة بكلمة تكشف عن حقيقتهِ وتبين ما كان له من عمق الأثر وبعد الخطر فى الرجل العربى والمرأة العربية

---

(١) الديارات جمع دير

الجوارى

كل ما وراء العدو من نفس ومال فهو فئ الله أفاءه على المسلمين وولى أمره امامهم، فان شاء تجاوز عنه ومنّ به، وإن شاء بسط عليه يده وعاد به على ذوى الحق فيه

وبحكم ذلك كانت بنات العدو ونسوته من مغانم الحرب فى كل بلد كان للسيف حكم فتحه وامتلاكه

وقد خَلَص للمسلمين من وراء ذلك عدد لا يحده الإدراك من النساء على اختلاف أسنانهن وأجناسهن وأخطارهن، ومنهن الفارسيات والتركيات والأرمنيات والجرجيات والشركسيات والروميات والبربريات والحبشيات. وفيهن بنات الأكاسرة والقياصرة والأساورة والبطارقة من كل قاصرة الطرف ناعمة الكف لم تبتذ لها المِهَن ولم تمتهنها المحن

لم تَلْقَ بُؤسا ولم يضرُر بها عوز   ولم تُرَجِّفْ مع الصالى إلى النار

وكان قواد الدولة وولاة الأمصار يجمعون من أولئك أنضرهن وجهاً وأنداهن صوتاً وأمثلهن أدباً ويرسلونهن إلى الخليفة وهو يصطفى منهن من يشاء ويثيب وزراءه وندماءه وخلصاءه بمن يشاء

ولقد ينبئك بما تجمع للخلفاء من الجوارى ما روى ابن الأثير أن المتوكل أُهدِى اليه فى يوم واحد عشرون ألف جارية، ولَهُنّ ولأشباههن بَنَى قصر الْجَعْفَرى حين ضاقت بهن مقاصير قصر الخلافة فى بغداد

ومن حديث تلك الكثرة أن الرشيد أهديت اليه جارية رائعة الجمال فاحتفل بها إحتفالاً أخرج فيه من جواريه المغنيات وساقيات الشراب زهاء ألفى جارية فى أحسن زى وأتم حِلْية، واتصل الخبر بزوجه زبيدة فالتهب صدرها غيظاً وغيرة، وفزعت إلى عُلَيَّة بنت المهدى فصنعت لحناً بديعاً وخرجت هى وزبيدة فى زهاء

ألفى جارية عليهن غرائب الثياب وكلُّهن ينشدن بصوت واحد ولحن واحد

منفصلٌ عنّى وما قلبيَ عنه منفصلْ
يا قاطعى اليوم لِمَنْ نَوَيْتَ بعدى أنْ تصل

فطرب الرشيد وقام حتى استقبل زبيدة وعُلَيّة وقال لم أرَ كاليوم قطّ ! يا مَسْرور! لا تُبْقِيَن فى بيت المال درهما إلا نثرته ، فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستة آلاف ألف ! !

وعلى هذا السَّنَن من الكثرة سار الخلفاء ومَن دُونهم من ذوى النعمة والثراء. وربما وقعت الفتاة الرُّود فى سَهْم الزاهد فيها الراغب فى المال عنها فيبيعها من المقيِّن وهو يذهب بها الى جواريه فيَجْلُونَها أحسن جلوة ويُزَيِّنَّها أنفس زينة ثم يعرضها للراغبين فى معرضه من سوق الجوارى أو يستبقيها فى بيته ليُرَوِّيها الشعر ويُخَرِّجَها فى الغناء ، وبها وبمثلها تصبح داره مثابة القاصدين من الخلفاء ومَن دونهم ليسترْوحوا منهن بحسن الحديث وطِيب السماع . وربما رغب العظيم فى اقتناء احداهن فبذل لصاحبها نهاية ما يتمناه

وكان الجوارى أنفس ما يتهادى به ذوو الأخطار ، وأفضل ما يثاب به الأدباء والشعراء والسُّمَّار ، وبذلك انبثثن فى كل موطن وحللن فى كل دار . وإذا آلمك أن يَسبِيَ العرب هذا العدد العديد من النساء فاعلم أنهن اللواتى سبين العرب ، وملكن أزمتهم ، ووطِئن أكتافهم ، واقتعدن ظهورهم . وضربْن بينهم وبين نسائهم بسور له باب ظاهره الحسن والدلال ، وباطنه الذل والوبال . ذلك أنهن أصبحن عقدة تلك الحياة التى لم يعصمها دين ولم يُحِط بها رفق ولم يخالطها وقار ، حياة السَّرَف والتَّرف والشهوات واللذات . وكان لهن من وسائل امتلاك قلوب العرب ما يروض كل عَصِى ، ويستقيد كل أبىّ ، ويستميل كل نافر ، ويستذل كل جامح ،

الجمـــال

وأوّل تلك الوسائل الجمال ، وأنت تعلم أن العرب فتحوا بلاداً ليس لبلادهم شيء من صفاء جوها ، ولا رخاء عيشها ، ولا اعتدال اقليمها . ولا رقة نسيمها ، ولا انسجام نعيمها ، ولا ابتسام زهرها ، ولا ازدهاء شجرها . فما يمنع نساءها أن يكنَّ على سواء أولئك صفاء وبهاء ، وجمالاً واعتدالاً ؟ وقد احتوى الجميعَ بلدٌ واحد وغَذَّتهن طبيعة واحدة ، ونَفَحَتْهن نسمة واحدة

وكان من أيسر الأمور أن يُطلب الجمال المطْلق فى واحدة فإن لم يكن ففى جماعة وهن من كثرة العدد واختلاف النوع على مثال ما رأيت

التجمـــل

وربما كان أفتنَ للعقول من الجمال ، وأسبى منه للنفوس أن تحسن المرأة التجمل فى زِيِّها وزينتها ، وحديثها واشارتها ، وعَبَثها ودعَابَـتها ودَلِّها وخَلَاعتها ، وجلوسها وَمِشيتها ؛ فتلك ضروب من الجمال لا يستوى النساء فى تنسيقها ولا تأليفها . وربما أخرجتها المرأة فى غير مُخْرَجها فأسأمت كل نفس وثقُلت على كل روح ، وقد تصيب بها مواضعها فتكون أمضى من الجمال سلاحاً . وأعظم منه كيداً ؛ والمرأة الفارسية أقدر نساء الشرق القديم على استلاب قلوب الرجال . ولقد شاء القدر أن تصارع المرأة الأجنبية ما فى الرجل العربى من بداوة وحَمية وعصبية فما زالت تفوّق اليها من سهام الحسن المجلوب والجمال المخضوب ما مزق قوتها وأطفأ جمرتها . ولقد لذ هذا الصراع لبنات الفرس حتى الحرائر اللواتى لم يُكْتَب عليهن رق ولم يُفرَضْ فيهن حق فكنَّ يتزيَّـنَّ بزى الجوارى ويُدلفن الى سُوقِهِنَّ ! ! وعليهن الأوشحة والعصائب والأكاليل والتيجان ، وبأيديهن المراوح وقد كتب على

كل ذلك بالذهب والجواهر من غرر الشعر ما تحار فيه القلوب والأبصار. فما كتبته إحداهن على جبينها بالمسك

كَتَبَتْ فى جبينها بِعَبِيرٍ على قمــــر
فى سطورٍ ثلاثةٍ لعن الله من غدر
وتناولتُ كَفَّهــا ثم قلت اسْمَعِى الخبر
كل شىء سوى الخِيَا نَةِ فى الحب يغتفر

ومما كتبته أخرى على عصابتها

فما زال يشكو الحب حتى كأنما تنفس فى أحشائه وتكلما
فأبكى لديه رحمة لبكائه اذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما

ومما كتبته أخرى

الكفر والسحر فى عَيْنى إذا نَظَرَتْ فأغْرُبْ بعينك يا مغرورُ عَنْ عينى
فان لى سيف لحظ لست أُغمده من صنعة الله لا من صنعة القَيْن

ومما كتبته واحدة على هلال فى صدرها

افلِتُّ من حور الجنانِ وخُلقت فتنة من يرانى

وربما ظهرت الجارية فى زى فارس فتقلدت السيف واعتقلت الرمح واتخذت المِنطَقَة على خصرها والقلنسوة فوق رأسها

ومما كتبته احداهن على قلنسوتها

تأمل حسن جارية يحار بوصْفِها القمر
مذكَّرَةٍ مُؤَنثــة فهِىَ أنثَى وهِىَ ذكر

وعلى حمائل سيفها

لم يكفِهِ سيف بِعَيْنَيْهِ	يقتل من شاء بحديه
حتى تردى مرهفاً صارماً	فكيف أبقى بين سيفيه
فلو تراه لابساً درعهُ	يخطِر فيها بين صفيه
علمت أن السيف من طرفه	أَقتلُ من سيف بكفيه

وأشباه ذلك كثير

ومَمَّنْ وصف أسلوب الجوارى ، فى العَبَثِ بقلوب الرجال فأحسن الوصف أَبو عثمان الجاحظ فى حديث مستفيض . ولا بأس أن نسوق اليك ما عَفَّ منه وشاكل موضوع الكتاب ، قال :

« إن القَيْنَةَ لا تكاد تناصِحُ فى ودها لأنهــا مكتَسبَةَ ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربِّطِين ليقعُوا فى أنشوطتها ، فاذا شاهدها المشاهد رامتهُ باللحظ وداعبته بالتَّسَم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودتهِ ، والحزن لفراقهِ ، فأذا أَحسَّتْ بأنَّ سِحْرَها قد تغلَّبَ فيهِ ، وأنهُ قد تغلغل فى الشَّرَكِ ، تَزَيَّدَت فيما كانت قد شرعت فيهِ ، وأوهمتهُ أن الذى بها أكثر مما بهِ منها ، ثم كاتبته تشكو اليهِ هواها ، وتقسم له أنها مَدَّت الدواة بدمعها ، وبلَّت السحاء بريقها ، وأنهُ سَبْحها وشجوها فى فكرتها ، وضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تُؤْثِرُ أحداً على هواه ، ولا تنوى انحرافاً عنهُ ، ولا تريده لماله بل لنفسهِ ، ثم جعلت الكتاب فى سلاسل طومار وختمتهُ بزعفران ، وشدته بقطعة زير ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وأَلَحَّتْ فى اقتضاء جوابه ، فان أُجيبَتْ عنه ادّعت أنها صيّرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضمـــير مليحـةٍ نَغَماتُهَا
جاءَتْ وقد فرح الفؤا دُ لِطول ما استبطأْتُهَا
فَضَحِكْتُ حين رأيتها وبكيت حين قرأتها
عينى رأت ما أنكرت فتبـــادرت عبراتها
أظلوم نفسى فى يديـــك حياتهـــا ووفاتها

ثم تغنت حينئذ بـ

إنَّ كتاب الحبيب نَدْمَانِى مُحَدِّثِى تارةً وريحانى
أضحكنى فى الكتابِ أوله ثم تمادى به فأبكانى

ثم تجنّت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، ووصمتْهُ النظر الى صواحبها ، وسقته أَنْصَافَ أَقْدَاحِها ، وجَمّشته بِعُضُوض تفاحها ، ومنحته من ريحانها ، وزودته عند انصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من مِرْطِها ، وشظية من مضرابها ، وأهدت اليه فى النيروز تكة وسكرا ، وفى المِهرَجان خاتماً وتفاحاً ، ونقشت على خاتمها رسمهُ ، وأبدت عند العثرة اسمهُ ، وغنته اذا رأته

نظرُ المُحِبِّ الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم أخبرتهُ أنها لا تنام شوقاً اليه ، ولا تهنأ بالطعام وجداً عليه ، ولا تمل — اذا غاب — الدموع فيه ، ولا ذكرته إلا تنغصت ، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قِنِّينَةً من دموعها من البكاء عليه ؛ وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وأَشْبَهَهُ أو كان منهُ مدانيا

وعند الدعاء به قوله

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

ادب الجوارى

بذلك وأشباههُ استمكن الجوارى من شهوات العرب، و بقى أن يملكن عليهم مجال أرواحهم ، و يأخذن عليهم سبل مشاعرهم ، ويَحْفِفْنَ بهم من كل نواحيهم . والعربى شاعر يهب الشعر قلبهُ وماله ، طروب يهزه زِزَامُ النّاقة ، ويبكيه نوح الحمام ، و بلاد فارس بما حَبَاها الله من حسن واشراق مشرق شمس الشعر ، ومهبط وحى الغناء ؛ وليس ينقصُ الفتاةَ الفارسيةَ إلا أن تروى الشعر العربى حتى تكون شاعرة ساحرة ، ومغنيِّةَ مضنية ، وذلك ما أقبل عليهِ الجوارى ومؤدبوهن اقبالاً لا حدّ له

وكان المقيِّنون يحتازون الجارية فان وجدوا منهـا لباقة فى اللفظ أو رخامة فى الصوت دفعوا بها الى المؤدبين والمغنين فيرُوونها الشعر ويلقنونها الغناء . فان تم لها هذان نبه شأنها ، وتنافس ذو و السلطان فى ابتغائها والمغالاة بها ، ولصاحبها من وراء ذلك ربح غير معدود ، وحظ غير محدود .

وكانوا قبل عهد بنى العباس لا يُعَلِّمُون الغناء الا الصُّفرَ والسود ، فلما ازدهر العهد العباسى وظهر ابرهيم الموصلى أخذ يختار الحسان ويعلمهن الغناء فكانت داره أشبه ما تكون بمعهد موسيقى يتخرج فيهِ حسان المغنيات ، فاذا تم ذلك لهن أخذ يبيعهن من الخليفة أو الوزير بما يكفل له الغِنَى والجاه والحظ العظيم .

وفيما فعله ابرهيم يقُول أبو عيينه

لا جزى الله الموصلىَّ أبا اِسْـ حاقَ عنَّا خيراً ولا احسانا

جاءنا مرْسَلاً بوحى من الشيْـ طَانِ أغْلَى به علينا القيانا

من غِنَاءٍ كأنه سكرات الْـ حُبِّ يُصْبى القُلُوبَ والآذانا

ولم يمض غير قليل حتى ظهر فتيات الفرس فى ميدان الشعر العربى والغناء العربى يدافعن الشعراء والمغنين بالمناكب ، وأخذن يُفرغن على الشعر العربى حلة مُذْهبة

النسج ، واضحة النهج ، صفيّة الديباجة ، خفيفة الروح ؛ وفى مذاهبهن سار المُرقّون من الشُّعَراء ، أمثال ابرهيم بن العباس ، وعلى بن الجهم ، ومهيار الديلمى ، ومَن ذهب فى مذاهبهم ودرج على آثارهم

وكان هذا العصر عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجوارى ، يبتدىء الشاعر ببيت من الشعر فتعارضهُ الجارية بمثله على وزنه ورَوِيّه وفى بقية معناه ، وأكثر ما تكون الغلبة للنساء ، فقد كُنَّ أسرع بديهة وأرق طَبعاً . ومن حديث ذلك أن أعرابياً ذهب الى عنانَ جارية الناطفى وصاحبة أبى نواس فقال : بلغنى أنك تقولين الشعر فقولى بيتاً ، وكان السلولى الشاعر عندها فقالت قل أنت يا عم ! ! فقال السلولى

لقد جَدَّ الفراق وعِيل صبرى   عشيَّة عِيرُهم للبين زُمّت

فقال الأعرابى

نظرت الى أواخرها ضُحَيًّا   وقد بانت وأرضَ الشام أمَّت

فقالت عنان

كتمتُ هواكمُ فى الصدر منى   على أن الدموع علىَّ نمَّت

فقال الأعرابى أنتِ والله أشعرنا ولولا أنك بحرمة رجل لقبَّلتك ، ولكنى أُقبّل البساط

ومن بديع المطارحة أن على بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل بيتاً غريب القافية ليعجزَها فقال

لاذ بها يَشتكى اليها   فلم يجد عندها ملاذا

فما لبثت أن قالت

ولم يزل ضارعاً اليها   تهطل أجفانهُ رَذَاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً   فمات وجداً فكان ماذا

وسنسوق اليك فى حديث الشواعر والمغنيات من ذلك شيئاً كثيراً

ومن فَضْل الشواعر من الجوارى على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن بين الشعر والغناء ، فكانت الجارية تقول الشعر ثم تُوَقعهُ ثم تتغنى بهِ فتخرجهُ أحسن مخرج وتؤثر بهِ أنفذ تأثير

بذل

وممن هؤلاء بذل المغنية جارية جعفر بن موسى الهادى ، وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة ، وكانت فيما ذكروا أروى خلق الله للغناء وأخبار المغنين ، ومن قولها إنها تروى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب جمعت فيه اثنى عشر ألف صوت ويقال انها كتبته فى يوم وليلة ! وهو قول ظاهر الغلو على أنهُ دليل على ما بلغته فى فنها من سمو وبعد غاية

وكان كل مغن يصف نفسهُ بالسبق فى فنه والتفرد فى احسانه إلا بين يدى بذل ، فهناك يتضاءل فخره ويلتبس سبيله حين تأخذ عليهِ نواحى الفن فلا يجد عنها مصرفاً ولا محيدا

وكان ابرهيم بن المهدى سيد أهل الغناء يعظمها ويتوافى لها ثم تغير بعد ذلك استغناء بنفسه عنها فصارت إليهِ فدعا بعود فغنت فى طريقة واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف ابرهيم منها صوتاً واحداً ، ووضعت العود وانصرفت فلم تدخل داره حتى طال عَناؤه فيها وطلابه لها وتوسله اليها

ومن حديثهم أن شيخ المغنين اسحاق بن ابرهيم الموصلى خالف بذلا فى نسبة صوت غنته فى حضرة المأمون فأمسكت عنهُ ساعة ثم غنت ثلاثة أصوات وسألت اسحاق عن صانعها فلم يعرفهُ ، فقالت للمأمون يا أمير المؤمنين هى والله لأبيه أخذتها مِن فيه ! فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ؟ ! فاشتد ذلك على اسحاق حتى رُئى فى وجهه

وكانت بذل لجعفر بن موسى الهادى فوصفت لمحمد الأمين فى عهد خلافته فبعث إلى جعفر يسأله أن يُزيره بَذْلاً فلم يفعل، فوافاه الأمين فى منزله فسمع من الغناء ما لم يسمع مثله قط ، وأحب الخليفة أن تكون له بذل فاستامها من ابن عمه فقال جعفر يا سيدى مثلى لا يبيع جارية قال هبها لى قال هى مدبّرة فاحتال الأمين عليهِ حتى أسكره وأمر بحمل بذل إلى حرّاقته وانصرف بها ، فلما أفاق جعفر سأل عنها فأُخبر الخبر فسكت ، فبعث إليه الأمين من غده فجاء وبذل جالسة فلم يقل شيئاً فلما أراد أن ينصرف قال الأمين : أوقروا حراقة[١] ابن عمى دراهم فأوقرت فكان مبلغ ذلك عشرين الف الف درهم ، ووهب لها الأمين من الجوهر ما لم يملك أحد مثله وبعد مقتله رغب اليها وجوه القواد والكتاب وبنى هاشم فى التزويج فأبت وأقامت فى موطن الإجلال من الخلفاء والأمراء وصدور الدولة حتى ماتت

عنان

وهى أحسن شعراء دهرها بديهة وأسبقهم نادرة وأعذبهم حديثاً وكل ذلك فى رقة وجمال قلّ أن يكونا لغيرها ، وهى من مولدات اليمامة وبها كانت نشأتها ثم اشتراها الناطفى أحد المُقيِّنين فى بغداد فكان بيته من أجلها مندَى العظماء والشعراء والعلماء . وكان أمراء الشعر يأتونها فيلقون عليها البيت أو البيتين فتجيزهما بما لم يخطر لهم على بال

ومَن حديث مروان بن أبى حفصه شاعر المهدى والرشيد أن الناطفى لقيه فدعاه إلى بيته فانطلق معه ، ودخل إلى عنان قبله ، فقال لها جئتك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصه، وكانت تشكو علة ، فقالت إنى عن مروان فى شغُل فأهوى اليها بالسوط، وقال لمروان ادخل فدخل وهى تبكى ورأى الدمع يحدر من عينها فقال

بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ ينسلّ من خيطه

(١) الحراقة سفينة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو

فقالت مسرعة

فليت مَن يضربها ظالماً　　تجفّ يمناه على سوطه

فقال مروان أعتقُ ما أملك إن كان فى الجن والانس أشعر منها

وقيل ان الرشيد جلسَ ليلة ومعه سُمّاره ، فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير التى يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا　　وشلا بعينك ما يزال مَعينا

فطرب لها الرشيد طرباً شديداً ، وقال لجلسائه هل منكم من يُجيز هذه الأبيات، وله هذه البدرة — وبين يديه بَدْرَة من دنانير[1] — فلم يصنعوا شيئاً ، فقال خادم من خاصة خدمه ، أنا بها لك يا أمير المؤمنين ، قال شأنك ، فاحتمل البدرة ، ثم أتى الناطفى فقال استأذن لى على عنان، فدخل وأخبرها الخبر، فقالت ويحك وما الأبيات ؟ فأنشدها إياها ، فقالت اكتب

هيجت بالقول قد الذى قلته　　داء بقلبي ما يزال كمينا

قد أينعت ثمراته فى روضها　　وسُقين من ماء الهوى فرَوينا

كذب الذين تَقَوّلوا يا سيدى　　أن القلوب إذا هوِيَن هَوِينا

فدفع اليها البدرة ورجع إلى هرون . فقال له ويحك من قالها . قال عنان جارية الناطفى فقال حلت الخلافة من عنقى إن باتت إلا عندى فاشتراها منه بثلاثين ألفا

وقال احمد بن معاوية ، تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدى أن أجد من يجيزه ، فلم أجد ، فقال صديق لى عليك بعنان جارية الناطفى فأتيتها فأنشدتها البيت وهو

وما زال يشكو الحب حتى رأيته　　تنفس من أحشائه وتكلما

---

(١) البدرة كيس فيه سبعة آلاف دينار

فلم تلبث أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه ... إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ودخل عليها أبان بن عبد الحميد وأبو العباس بن رستم وهى فى خيش ، فقال لها أبان : العيش فى الصيف خَيشُ . فقالت مسرعة : إذ لا قتالٌ وجيش ، فأنشدها أبو العباس بن رستم قول جرير

ظلِلْت أوارى صاحِبيَّ صبابتى ... وقد علِقَتْنِى من هواك عَلُوق

فقالت مسرعة

اذا عقل الخوف اللسان تكلمت ... بأسراره عين عليه نَطُوق

ولِعنَانَ مع أبى نواس فصول طوال ، كان يتعرض لها بما يظنه أن يحرجها فترد عليه بما يفحمهُ ويقهره . وقد صرفنا القول عما تجاذباه من الشعر لأن أكثره مما يند على السمع لهُجره ومجانته

ومن حديث الجد بينهما أنه دخل عليها وهى جالسة تبكى لما أصابها من ضرب الناطفى ، فأومأ هذا إلى أبى نواس أن يكلمها فقال أبو نواس

عنانُ لو جُدْتِ لى ! فأنِّىَ مِن ... عمرِىَ فى « آمَن الرسول بما »[1]

فقالت :

فان تمادى ولا تماديت فى ... قطعك حبلى أكن كمَن ختما

فقال أبو نواس

عُلِّقْتُ مَنْ لو أتى على أنْفُس الـــماضِينَ والغابرين ما ندما

فقالت :

لو نظرت عينها إلى حجر ... ولَّد فِيه فتورها سقما

(١) يقول أنه يتمنى جودها بالرضا لأنه فى آخر مرحلة من الحياة كما أن هذه الآية الكريمة «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ...» فى آخر سورة البقرة ، فقالت فى بيتها الثانى تتمة لكلامه أنها اذا تمادت ختم عمره كما تختم هذه الآية .

بَصْبَص

جارية أوتيت كثيراً من ملاحة الوجهِ وسحر الغناء . تلقت صناعتها عن الطبقة الأولى من المغنين . وكانت فى رق يحيي بين نفيس ، وكان يحيي صاحب قيان . يُرَوِّيهِنَّ الشعر ويعلمهن الغناء ، ومن أجل ذلك كانت داره بالمدينة مهبطا للوجوه والأشراف ، ووُصفت للمهدى وهو ولى عهد فاشتراها بسبعة عشر ألف دينار . وقيل انه استولدها ابنته عُلَيَّة . وكان عبد الله بن مصعب حفيد ابن الزبير يأتيها بالمدينة فى فتيان قريش فيستمع منها . وكان من أشد الناس اعجابا بها . وفيها يقول حين قدم المنصور منصرفاً من الحج ومر بالمدينة

أراحــلٌ أنت أبا جعفرٍ — من قبل أن تسمع مِن بَصْبصا؟
هيهات أن تسمع منهـا إذاً — جاوزَت العيس بك الأعوصا[1]
نخـــذ عليها مجلسَىْ لذة — ومجلساً من قبل أن تشخصا
أحلف بالله يميناً ومَن — يحلف بالله فقـــد أخلصا
لو أنهــــا تدعو إلى بيعة — بايعتهـا ثم شققت العصا

وما كان أجرأ ذلك الفتى القرشىّ على المنصور وهو الذى لا تأخذه فى سفك الدماء ملامة ولا يثنيهِ عنها حرج . ولقد بلغ المنصور هذا القول فاشتد غضبه . ودعا الشاعر وقال له : أمَا إنكم يا آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا[2] حتى صرت أنت آخر الحمق ، تبايع المغنيات . فدونكم يا آل الزَبير هذا المرتع الوخيم .

---

(١) الأعوص منزلة فى طريق المدينة (٢) يشير المنصور إلى حوادث انقاد فيها رجل هذا البيت إلى رأى النساء وأولها انقياد الزبير بن العوام إلى رأى سيدة النساء فاطمة الزهراء حين غاضبت أبا بكر وجانبته فامتنع الزبير عن بيعته مرضاة لها حتى توفيت . ومنها انقياد عبد الله بن الزبير الى رأى أمه أسماء حين دفعته الى المضي فى قتال الحجاج حتى الموت وكان مصعب بن الزبير لا يبرم أمراً الا اذا استشار احدى زوجتيه عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين

وفى بصبص يقول هرون بن محمد بن عبد الملك

بصبص أنت الشمس مزدانةً فان تبدلتِ فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود فى مشهد وعاونت يمنى يديها الشمال
غنت غِنــــاء يستفز الفتى حذقاً وزان الحذقَ منها الدلال

وممن شغف بهذه الجارية من أبناء الأشراف ، محمد بن عيسى الجعفرى ، وقد هام بها طويلاً ثم لما عز عليهِ طلابها سلّى نفسه بعض السلو عنها ، ومن حديثه أنه قال لصديق له لقد شغلتنى هذه الجارية عن صنعتى وكل أمرى ، وقد وجدت مَسَّ السلو عنها ، فاذهب بنا اليها حتى أكاشفها ذلك وأستريح ، فأتياها ، فلما غنتهما قال لها محمد بن عيسى : أتغنين

وكنت أحبكم فسلوت عنكم عليكم فى دياركم السلام

فقالت : لا . ولكنى أغنى

تحمّل أهلها عنهــا فبانوا على آثار من ذهب العفاء

فاستحيا محمد ، وبدّل بالسلو كلفاً ووجداً ، وأطرق ساعة ثم قال لها : أتغنين

وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذى أتنصل

قالت : نعم . وأغنى أحسن منهُ

فان تقبلوا بالود تقبل بمثله وننزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين ، وما شعر بهما أحد

وحضر أبو السائب المخزومى مجلساً فيهِ بصبص فغنت

قلبي حبيس عليك موقوف والعين عَبْرَى والدمع مذروف
والنفس فى حسرة بغصتها قد شفَّ أرجاءها التساويف

إن كنت بالحسن قد وصفت لنا فانني بالهــــوى لموصوف
يا حسرتا حسرةً أموت بهـا إن لم يكن لى اليك معروف

فطرب أبو السائب ونعر، وقال لا عرف الله من لم يعرف لك معروفك، ثم أخذ قناعها من رأسها ووضعهُ على رأسه وجعل يبكى ويلطم ويقول لها بأبى أنت، والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضل من الشهد لما تُنَوِّلِيناه من السرور، وجعل يصيح : واغوثاه ! يا لله ما يلقى العاشقون !

وحدّث عثمان بن محمد الليثى قال : كنت يوماً فى منزل ابن نفيس فخرجت الينا جاريته بصبص، وكان فى القوم فتى يحبها، فسألته حاجة، فقام ليأتيها بها، فنسى أن يلبس نعله، ومضى حافياً، فقالت له يا فلان نسيت نعلك، فرجع فلبسها وقال : أنا والله كما قال الأول

وحبك يُنسينى عن الشىء فى يدى ويشغلنى عن كل شىء أحاوله

فأجابته فقالت

وبى مثل ما تشكوه منى وإننى لأشفق من حب لذاك تزايله

دنانير

وهو اسم لجاريتين

أما الأولى لجارية، محمد بن كناسة، وكان ابن كناسة شاعراً فى الطبقة الثانية من شعراء العهد العباسى، وكانت جاريته فى مثل طبقته منهم، ومن حديثها ما رواه المرزبانى عن بعض شعراء الكوفة، قال : قال لى محمد بن كناسة اشتهت دنانير أن تنظر الى الحيرة فهل لك أن تساعدنا ؟ وكان الزمان ربيعا، فقلت نعم، فقال تَقَدَّمنا لنلحق بك، فقصدت الخورنق، وجلست فى بعض المواضع المعشبة،

واذا به قد أقبل على بغلة ، ومعه دنانير على حمار ، فنزلا وجلسنا ، وقد سترت بعض وجهها عنى ، فقلت أداعبها — وكان محمد يأنس بى ويسكن الى — انما تسترين وجهك عن شيخ ، فقالت : طماح العين ، فضحكنا ، ثم أخذنا ننظر الى رياض الحيرة وبقاعها ونتذكر ما مضى بها من الزمان ونستحسن حمرة الشقائق على ائتلاف تلك الأنوار والألوان ، فأخذ محمد عوداً وكتب على الأرض :

الآن حين تزيّن القُطر انجادُه ووهاده العُفر

فقلت أحسنت وكتبت

بريّة فى البحر نابتة يُجْبَى إليها البر والبحر

فكَتَبَتْ

وسرى الفرات على مياسرها وجرى على أيمانها النهر
وبدا الخورنق فى مطالعها فرداً يلوح كأنه الفجر
كانت منازل للملوك ولم يُعمل بها لمملّك قبر

أقول ومن أشرف الشعر وأجزله وأنزهه قولها تخاطب أبا الشعثاء ، وكان رجلاً عفيفاً مزاحاً ، وكان يدخل الى ابن كناسة يسمع غناءها ويعرض لها بأنه يهواها

لأبى الشعثاء حب كامن ليس فيه نُهْضَةٌ للمُتهِم
يا فؤادى فازدجر عنه ويا عبث الحب به فاقعد وقم
زارنى منه كلام صائب ووسيلات المحبين الكَلِم
صائد تأمنه غزلانه مثل ما نأمن غزلان الحَرَم
صَلِّ إن أحببت أن تُعْطَى المنى يا أبا الشعثاء لله وصم
ثم ميعادك يوم الحشر فى جنة الخلد ان الله رحم

وأما الثانية فجارية جعفر بن يحيي ، وكانت أنبه من الأولى ذكراً وأبدع شعراً وأتم ظرفاً وكمالاً ، وأزهى حسناً وجمالاً ، وأكثر رواية واطلاعاً ، وأدق لحناً وايقاعاً ، وكانت لرجل من أهل المدينة وهو الذى خرّجها فى الأدب والغناء ، فلما رآها جعفر بن يحيي وقعت بقلبه فاشتراها ، وكان الرشيد يسير الى دار جعفر ليسمعها ويتحدث اليها حتى ألفها واشتد اعجابه بها فكان لما يشعر من شغفه بها ونزوعه اليها لا يطيق الصبر عن المسير اليها ، وكان بره بها والطافه لها مما ضرب به الأمثال ، ومن ذلك أنه وهب لها ذات ليلة عقداً بثلاثين الف دينار ، وعامت زبيدة كل ذلك فأحزنها ودفعها الى شكوى الرشيد الى عمومته فصاروا اليه جميعاً فعاتبوه فقال مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها وأنما أربى فى غنائها فاسمعوها . فان استحقت أن يُؤلَف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم . فنقلهم الى يحيي حتى سمعوها عنده فأولوه جانب العذر وعادوا الى زبيدة فأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها فقبلت ذلك وأهدت الرشيد عشر جوار لعله يسلو بهن عنها — ومنهن مارية أم المعتصم ومراحل أم المأمون ، وماردة أم صالح .

ومما حدث به ابرهيم الموصلي : قال لى يحيي بن خالد ، ان ابنتك دنانير قد عملت صوتاً اختارته وأعجبت به فقلت لها : لا يشتدَّ إعجابُك حتى تعرضيه على شيخك فان رضيه فارضَيْهِ لنفسك . وان كرهه فاكرهيه ، فامض حتى تعرضه عليك ، فقلت له أيها الوزير فكيف إعجابك ، فانك والله ثاقب الفطنة صحيح التميز قال أكره أن أقول لك أعجبنى فيكون عندك غير معجب إذ كنت عندى رئيس صناعتك تعرف منها ما لا أعرف وتقف من لطائفها على ما لا أقف ، وأكره أن أقول لك لا يعجبنى وقد بلغ من قلبي مبلغاً محموداً . وانما يتم السرور به اذا صادف ذلك منك استجادة وتصويباً . قال : فمضيت اليها ، وقد كان تقدم الى

خدمه يعلمهم أنه سيرسل بي الى داره ، فأدخلْت ، واذا الستارة قد نصبت ، فسلمت على الجارية من وراء الستارة فردت السلام وقالت : يا أبت أعرِضُ عليك صوتاً قد تقدم ولا شك اليك خبره ، وقد سمعتُ الوزير يقول ان الناس يُفتنون بغنائهم فيعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم كما يفتنون بأولادهم فيحسن فى أعينهم منهم ما ليس يحسن ، وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك ، فقلت هاتِ ، فأخذت عودها وتغنت تقول :

نفسى أكنتُ عليك مدعياً   أم حين أزمع بينهم خُنْتِ ؟

ان كنت مُولَعة بذكرهم   فعلى فراقهم ألا مُتِّ ؟

قال فأعجبنى والله غاية العجب ، واستخفّنى الطرب حتى قلت لها أعيديه فأعادته وأنا أطلب لها موضعاً أصلحه ، وأغَيِّره عليها ، لتأخذه عنى ، فلا والله ما قدرت ، ثم قلت لها أعيديه الثالثة ، فأعادت فاذا هو كالذهب المُصَفَّى ، فقلت أحسنت يا بنية ، وأصبت ، وقد قطعت بحسن إحسانك ، وجودة اصابتك ، ثم خرج ، فلقيه يحيي ، فقال : كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير قال : أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هـذه الصنعة ، ولقد قلت لها أعيديه ، وأعادته علىّ مرات ، كل ذلك أريد إعناتها لأجتلب لنفسى مدخلا يؤخذ عنى ، وينسب إلىّ ، فلا والله ما وجدته

وإذا شئت أن تعرف ما لهذه الجارية من بعد الشأو فى الشعر ، ولطف المدخل فى الغناء ، فاليك قول جحظة البرمكى « كنت أنا وابن جامع نعانى دنانير جارية البرامكة فكثيراً ما كانت تغلبنا » وكلا هذين الرجلين قطب من أقطاب الغناء ، فى الدولة العباسية ، وعلم من أعلامه

ومن حديث وفائها لمواليها ، أن الرشيد دعا بها بعد أن أوقع نكبته بالبرامكة ، فأمرها أن تغنى ، فقالت يا أمير المؤمنين ، إنى آليت ألاَّ أغنى بعد سيدى أبداً ،

فغضب وأمر بصفعها فصفعت ، وأقيمت واقفة ، وأعطيت العود ، فأخذته وهى تبكى أحر بكاء ، واندفعت فغنت

يا دار سلمى بنازح السَّنَد   من الثنايا ومسقط اللِّبـدِ
لما رأيت الديار قد دَرَست   أيقنت أن النعيم لم يَعُد

فرق لها الرشيد وأمر باطلاقها ، فانصرفت

ولدنانير كتاب فى الغناء يعده أهل هـذا الفن أصلاً من أصوله ، ومرجعاً من مراجعه

عَـــرِيب

وهى فتنة هذا العصر ، وعقدة سحره ، وملتقى بدائعه ، ومجتمع نوادره . نشأت فى دار جعفر بن يحيي البرمكى ، وقيل إنها ابنته من إحدى جواريه ، ثم جحد البرامكة نسبتها ، وبيعت فيمن بيع من جوارى جعفر بعد نكبته ، ثم احتازها ثمانية من خلفاء هذه الدولة ، أولهم الأمين ، وآخرهم المعتز ، وما منهم إلاّ من يعدها زينة قصره ، وآية عصره ، واليها اجتمعت محاسن هذا الجيل ، وفيها انتظمت مواهبهم ، من حسن خط ، وحلاوة شعر ، وجمال صورة ، وغاية ظرف ، وجودة ضرب ، ودقة غناء . وفيهـا يقول اسحاق الموصلى « ما رأيت امرأة أضرب من عَرِيب ، ولا أحسن صنعة ، ولا أجمل وجهاً ، ولا أخف روحاً ، ولا أحسن خطاباً ، ولا أسرع جواباً ، ولا ألعب بالشِّطْرَنْج والنرد ، ولا أجمع لخصلة حسنة ؛ لم أر مثلها فى امرأة غيرها » واسحاق إمام أئمة هذا الفن ، وشهادته لها مقطع الرأى وفصل الخطاب ، وقد ذكر هذه الشهادة حماد بن اسحاق لقاضى القضاة يحي بن اكثم فقال : صدق أبو محمد ، هى كذلك ، قال أسمعتها ، قال نعم هناك « يعنى فى دار المأمون » قال : أفكانت كما ذكر أبو محمد فى الحذق ، قال يحي : هذه مسألة الجواب فيها على أبيك ، هو أعلم بها منى

وكان المأمون مشغوفاً بحبها ، وقد ذكر صاحب نهاية الأرب أنه خلع فى حبها عذار الخلافة حتى قبل مرة قدمها ، وقد نُسِبَت هى اليهِ فقيل لها عريب المأمونية ، وكان اسحاق قد وصفها له قبل أن تصير اليهِ فأمره أن يشتريها بمائة ألف درهم ، وأعطى اسحاق فى وساطة شرائها مائة ألف أخرى . قال ابرهيم بن رباح — كاتب ديوان المأمون — فلما أردت أن أثبت هذا القدر من المال كتبت إن مائة الألف خرجت فى ثمن جوهرة ، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلالها ، فجاء الفضل بن مروان — الوزير — الى المأمون ، وقد رأى ذلك وأنكره ، وسألنى عنهُ فقلت نعم ، هو ما رأيت ، فسأل المأمون عن ذلك فقال : وهبت لدلال وصائغ مائة الف درهم ! وغلَّظ القصة ، فأنكرها المأمون ، ودعانى ، فدنوت ، وأخبرته أن المال الذى خرج فى ثمن عريب ، وصلة اسحاق وقلت أيما أصوب يا أمير المؤمنين ، ما فعلت ، أم أثبت فى الديوان أنها خرجت ثمن مغنية وصلة مغن ؟ فضحك المأمون وقال : الذى فعلت أصوب ، ثم قال للفضل بن مروان يا نبطىّ لا تعترض على كاتبي هذا فى شيء

وما أظن امرأة بلغت فى هذا العصر من نباهة الشأن وبعد الشأو ما بلغتهُ عريب ، بل لا أظن مغنية فى أى عصر منَ العصور نالت من الحظوة والجاه بين صدور الدولة وأعوانَ الخليفة ما بلغتهُ هذه المرأة الممتازة بين النساء

ومن حديث ابرهيم بن محمد اليزيدى أحد أصحاب المأمون قال : كنت مع المأمون فى بلد من بلاد الروم ، فبينا أنا فى ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح ، والى جانبي قبة ، فبرقت برقة ، واذا فى القبة عريب ، قالت : ابرهيم بن اليزيدى ؟ قلت لبيك ! قالت قل فى هذا البرق أبياتاً ملاحاً لأغنى فيها ، فقلت

ماذا بقلبي من أليم الخَفَقِ اذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردنّ أو دمشقِ لأن من أهوى بذاك الأفق

خالفتـه وهو أعز الخلق   عليّ والزور خلاف الحقّ
ذاكـ الذى يملك منى رقى   ولست أبغى ما حييت عتق

قال فتنفّسَتْ نفساً ظننت أنه قطع حيازيمها ، فقلت ويحك ! على من هذا ؟ فضحكت ، ثم قالت : على الوطن ، فقلت هيهات ! ليس هذا كلهُ للوطن ، فقالت ويلك ! أفتراكـ ظننت أنك تستفزنى ! والله ، لقد نظرتُ نظرة مريبة فى مجلسى ، فادعاها أكثر من ثلاثين رئيساً ، والله ما علم أحد منهم لمن كانت الى هذا اليوم

وكان بينها و بين ابرهيم بن المدبر أحد ولاة الدولة وكتابها وسراتها صحبة صادقة وود مكين ، لم يجاوز ود الأديب للأديب ، ثم حدث عتب فاحتجبت عنهُ ، وجد به الشوق والحنين اليها ، وقال فى ذلك — وهو مما يُتغنى به :—

إلى الله أشكو وحشتى وتفجعى   وبعد المدى بينى و بين عريب
مضى دونها شهران لم أخلُ منهما   بعيش ولا من قربهـا بنصيب
فكنت غريباً بين أهلى وجيرتى   ولست إذا أبصرتها بغريب
وان حبيباً لم ير النـاس مِثله   حقيق بأن يفدَى بكل حبيب

وحَدَث أن اجتمع ابرهيم بن المدبر وعبد الله بن حمدان وابن منارة والقاسم فى بستان بالمُطَيْرة فى يوم غيم يقطر أحسن قطر ، ويُجتَلَى فيه أطيب العيش ، قال عبد الله بن حمدان فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد ، فوثب ابرهيم ابن المدبر من بيننا نخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقبّل الأرض بين يديها ، فجاءت وجلست ، وأقبلت عليه متبسمة ، وقالت : إنما حننتُ إلى مَن هنا لا إليك ، فاعتذر لها . وقال :

بأبى من حقق الظن به   فأتانا زائرًا مبتـــديا
كان كالغيث تراخى مدة   وأتى بعد قنوط مُرْويا

طاب يومان لنا فى قربه | بعد شهرين لهجر مضيا
فأقرّ الله عينى وشفى | سَقَماً كان لجسمى مبليا

وقال فيها :

ألا يا عريب وقيت الردى | وجنّبَك الله صرف الزمن
فإنك أصبحت زين النساء | وواحدة الناس فى كل فن
فقربك يدنى لذيذ الحيـاة | وبعدك ينفى لذيذ الوسن
فنعم الأنيس ونعم الجليس | ونعم السمير ونعم السكن

ثم قال فيها وفى جاريتيها بدعة وتحفة

ان عريباً خلقت وحدها | فى كل ما يحسن من أمرها
ونعمة لله فى خلقــــه | يقصر العالَمُ فى شكرها
أشهدنى جاريتاها على | أنهمـــا محسنتا دهرها
فبدعة تبدع فى شجوها | وتحفة تحف فى زمرها
يا رب أمتعها بمـا خُوِّلت | وامدد لنا يا رب فى عمرها

وكانت عريبُ على موعد من زيارة ابرهيم ، فلما كانت فى صباح يوم الموعد تجد نشاطاً للزيارة ، فأرسلت إليهِ بدعة وتحفة تحملان منها هذه الرسالة :

بنفسى أنت وسمعى وبصرى — وقلّ ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً طيّب الله عيشك — قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، وكأنه أنت فى رقة شمائلك ، وطيب محضرك ومخبرك ، لافقدت ذلك منك ، ولم يصادف حسنهُ وطيبه منا نشاطاً ولاطرباً لأمور صدّتنى عن ذلك ، أكره تنغيص ما أشتهيهِ لك من السرور بشرحها ، وقد بعثت اليك ببدعة وتحفة ليؤنساك وتُسَر بهما ، سرك الله وسرنى بك

فكتب اليها

كيف السرور وأنت نازحة عنى وكيف يسوغ لى الطرب

إن غبت غاب العيش وانقطعت أسبابه وألحّت الكُربَ

وابتدأ الجواب ، فلم تلبث ان جاءت على حمار فبادر اليها وتلقاها حافياً حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بساطه وما عليه حتى أخذ بركابها فأجلسها فى مجلسه وجلس بين يديها ، ثم قال :

ألا رُبَّ يوم قصّر الله طولهُ بقرب عريب ، حبذا هو من قرب

بها تحسن الدنيا وينعم عيشها وتجتمع السراء للعين والقلب

وكان يُطيف الخاطر بعريب فتقوله شعراً ثم تصوغه لحناً ثم تُوَقعه غناء يستطير قلب الحكيم ويستخف وقار الحليم ، ومن شعرها ولحنها وغنائها قولها

لو كان يقدر أن يبُثَّك ما به لرأيت أحسن عاتب يتعتب

حجبوه عن بصرى فمثِّلَ شخصه فى القلب فهو محجب لا يحجب

ومنـــــه

أما الحبيب فقد مضى بالرغم منى لا الرضا

أخطأت فى تركى لمن لم أُلْفَ عنه مُعْرِضا

ومنـــــه

اذا كنت تحذر ما تحذرُ وتزعم أنك لا تجسر

فمالى أقيم على صبوتى ويوم لقائك لا يقدر

ومن بديع إجازتها للشِّعر وتضمينها إياه ، ما حدّث على ابن المنجم ، قال : دخلت يوماً على عريب مسلّماً عليها ، فلما جلست هطلت السماء بمطر عظيم ، فقالت أقم عندى اليوم حتى أغنيك أنا وجوارىّ وابعث إلى من أحببت من

اخوانك ، فأمرتُ بدوابى فردّت ، وجلسنا نتحدث ، فسألتنى عن خبرنا بالأمس فى مجلس الخليفة « الواثق » ومَن كان يغنينا وأى شىء استحسناه من الغناء ، فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لحناً صنعه بنان (المغنى) من الماخورى « وكان الواثق من أعلم الناس باللحن والايقاع » فقالت وما هو ؟ فقلت :

تَجَافى ثم تنطبق جفون حشوُها الأرق
وذى كلف بكى جزعاً وسَفْرُ القوم منطلق
به قلق يُمَلْمِلُهُ وكان وما به قَلَقُ
جوانحه على خطر بنار الشوق تحترق

فوجهت عريب رسولاً الى بنان فحضر وقد بلّته السماء ، فأمرت بخلع فاخرة فخلعت عليهِ ، وقُدم له طعام فأكل ، وجلس يشرب معنا ، فسألتهُ عن الصوت فغناها إياه ، فأخذت دواة ورقعة وكتبت :

أجاب الوابل الغَـدِق وصاح النرجس الغَرِق
وقد غنى بنان لنـا « جفونٌ حشوها الأرق »
فهاك الكأسَ مترعة كأن ختامها حَدَق

قال على بن المنجم : فما شربنا يومنا الا على هذه الأبيات

ومن عجيب وفاء عريب لفنها ، ونسيان ذاتها فى سبيله ما حكاه صالح بن على ابن الرشيد قال : تمارى خالى ابو على والمأمون فى صوت ، فقال المأمون أين عريب ؟ فجاءت وهى محمومة ، فسألها عن الصوت فقالت فيهِ بعلمها ، فقال لها غنيه ، فولت لتجىء بالعود ، فقال غنيه بلا عود ، فاعتمدت من الحمّى على الحائط وغنت ، وأقبلت عقرب فرأيتها وقد لسبَت يدها مرتين أو ثلاثاً فما نحت يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت ، ثم سقطت وقد غشى عليها

ومن بديع منطقها ما حدثوا أن المأمون عتب عليها فهجرها أياماً ، ثم اعتلت فعادها ، فقال كيف وجدت طعم الهجر؟ فقالت يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون الى جلسائه فحدثهم بالقصة ثم قال : أترى لو كان هذا من كلام النَّظَّام ألم يكن كثيراً؟

ولما قبل المأمون قدمها قالت : والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرّفها الله من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها ، ولكن لله عليّ ألاّ أغسلها لغير وضوء أو طهر الا بماء الورد ما عشت . فكانت تفعل ذلك الى أن ماتت

فضل

وعزيز علينا أن نجمل القول عن فضل في صفحة أو صفحتين فان في ذلك الإجمال مظلمة للأدب العربي لا يبلغها العذر

نشأت فضل بالبصرة في دار شاعر من بني عبد القيس ، وبالبصرة تأدبت وتخرجت ثم اشتريت وأهديت إلى المتوكل ، وكانت في الغاية العلياء من قسامة الوجه ، وحلاوة الطبع ، وحسن البديهة ، وظرف الحديث ، أما الشعر فهي فيه نسيج وحدها ، بل إنك لا تجد لها في شواعر النساء ضريباً منذ جرى على ألسنتهن الشعر ، وكان عصر المتوكل عصر الشعر الساحر الذي ينبعث عن الطبع الرقيق ، وقد اجتمع فيه من الشعراء المُرَقِّقين ذوي الديباجة المُذْهَبة والأسلوب الغنائي البديع ما لم يجتمع في عصر من العصور ، ففيه ظهر البحتري وسعيد بن حُمَيد وعلي بن الجهم وابرهيم بن العباس وابن الرومي وأشباههم . وفيه ظهرت فضل فما قصرت عن هؤلاء جميعاً ، وكثيراً ما تقدمتهم في الشعر الغنائي الذي يعتمد على فرط الرقة وقوة التأثير ، وكم من الشعراء من يحسن أن يقول :

الصبر ينقص والسَّقام يزيد والدار دانيــة وأنت بعِيد
أشكوك أم أشكو اليك فانه لا يستطيع سواهما المجهود

ومن ذا الذى يستمع قولها فى المتوكل يتغنى به

إن من يملك رقى مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العا لم هــذا فى حسابى

ثم لا تميد به النشوة ويستخفه الطرب

وهل يحسن البحترى وأشباه البحترى أن يقولوا خيراً مما تقول فضل

لأ كتمن الذى بالقلب من حُرَق حتى أموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هى الياس
ولا أبوح بشىء كنت أ كتمه عند الجلوس اذا ما دارت الـكاس

وأنظر الى استراضة الشعر لها ، وانسياغه على لسانها يوم أهديت الى المتوكل فقال لها أشاعرة أنت ؟ فقالت كذا زعم من باعنى واشترانى ، فضحك وقال أنشدينا من شعرك ، فقالت :

استقبل المُلكَ أمام الهدى عام ثلاث وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لنرجو يا امام الهدى أن تملك النـاس ثمانينا
لا قدس الله أمرا لم يقل عند دعائى لك آمينا

وكانت فضل مضرب المثل فى حسن البديهة وقوة الارتجال

ومما حدث ابن أبى طاهر أن بعض الشعراء ألقى عليها قوله

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقالت مسرعة

فوالله ما يدرى أتدرى بما جنت على قلبــه أم أهلـكته وما تدرى

ومن حديث الفضل بن العباس الهاشمى أن المتوكل خرج متوكئاً على جاريتيه فضل وبنان ، فقال لهما أجيزا قول الشاعر

تعامت أسباب الرضا خوف سخطه   وعامه حبى له كيف يغضب

فقالت فضل

تصد وأدنو بالمودة جاهداً   ويبعد عنى بالوصال وأقرب

وقالت بنان

وعندى له العتبى على كل حالة   فما منه لى بدّ وما منه مذهب

وكانت فضل على بعد مرامها فى الشعر بعيدة الغاية فى النثر ، ومما قاله ابرهيم ابن المهدى فيها : كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاً ، وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم فى مخاطبة ، وأثبتهم فى محاورة ، قلت يوماً لسعيد بن حميد : أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها ، وتقيدها وتخرجها ، فقد أخذت نحوك فى الكلام وسلكت سبيلك ، فقال لى وهو يضحك ، ما أخيب ظنك ! ليتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك

وبعد فكان جميلاً أن نستوفى القول عن هذه الجارية ونبين ما لها على الأدب العربى من فضل وجميل ، لولا أن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك ، ولعلنا نوفيها القول فيما نكتبه عن أدب النساء فى كتاب خاص

محبـــوبة

وهى من نظائر فضل فى نشأتها وتربيتها واهدائها الى المتوكل ، فبالبصرة نشأت وفيها تخرجت ، وكانت أجمل من فضل وجهاً وأعلى نفساً وأشبه بها فى رقة طبعها وعذوبة لفظها وحضور خاطرها وقوة ارتجالها وان وقعت دون غايتها فى ذلك كله

ومن حديثها أن قبيحة حظِيّة المتوكل كتبت على خدها بالغالية « جعفر » وهو اسم المتوكل فأعجبه ذلك منها ، وطلب الى على بن الجهم أن يقول فى ذلك شعراً ، وكانت محبوبة حاضرة . فلم تدع لابن الجهم وقتاً يفكر فيه واندفعت من فورها تقول

وكاتبة بالمسك فى الخد جعفرا   بنفسى مَحَط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت فى الخد سطراً بكفها   لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيامن لمملوك لملْكِ يَمِينِه   مطيع له فيما أسر وأظهرا
ويامن هواها فى السريرة جعفر   سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وكان فى المجلس على بن يحيي المنجم أحد شعراء المتوكل وندمائه ، فبقى الشاعران واجمين لا ينطقان بحرف ، وأرسل إلى عريب فلحنت الشعر وغنى به المغنيات

ومن حديث على بن الجهم قال :

كنت يوماً عند المتوكل وهو يشرب ، ونحن بين يديه ، فدفع الى محبوبة تفاحة مغلفة ، فقبلتها وانصرفت من حضرته الى الموضع الذى كانت تجلس فيه اذا شرب ، ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة فدفعتها الى المتوكل ، فقرأها وضحك ضحكاً شديداً ، ثم رمى بها الينا فقرأناها ، وإذا فيها

يا طيب تفاحة خلوت بها   تشعل نار الهوى على كبدى
أبكى اليها وأشتكى دنفى   وما ألاقى من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت   من رحمتى هذه التى بيدى
ان كنت لا ترحمين ما لقيت   نفسى من الجهد فارحمى جسدى

وكان المتوكل لا يكاد يفارق محبوبة وقتاً من الزمان ، حتى إنه وهو فى مجلس خلافته كان يجلسها خلف ستر ثم ينثنى وراء الستر فيكلمها ، ثم غاضبها يوماً فهجرها ومنع جواريه أن يكلمنها وانقطعت عنه وانقطع عنها . ثم أخبرته وصيفة بأنها فى

حجرتها تغنى ، فذهب حتى انتهى الى حجرتها واستمع إليها فاذا هى تغنى بقولها :

أدور فى القصر لا أرى أحداً　　أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى ركبت معصية　　ليست لها فدية تخلصنى
فهل لنا شافع الى ملك　　قد زارنى فى الكرى فصالحنى
حتى اذا ما الصباح عاد لنا　　عاد إلى هجره فصارمنى

فطرب المتوكل طرباً شديداً وأعاد لها سابق عهده وقديم وده

ولما قتل المتوكل تفرق جواريه فكان مصير محبوبة الى « وصيف » أحد المماليك الذين جلبهم المعتصم ثم غفل عنهم الزمان فأصبح لهم فى هذه الدولة ملك وسلطان ، وكان مصيرها اليه فى كثير من جوارى المتوكل . فلما انتهين اليه جلس للشراب وأحضرهن عليهن الثياب المذهبة والجواهر الوضاءة وقد تصنعن وتطيبن الا محبوبة فانها جاءت مرهاء متسلبة[١] حزنا على المتوكل . فغنى الجوارى جميعاً وشربن وطرب وصيف وشرب ، ثم قال لها يا محبوبة غنى ! فأخذت العود وغنت وهى تبكى وتقول

أى عيش يطيب لى　　لا أرى فيه جعفرا
ملكاً قد رأته عيـــنى قتيلاً معفرا
كل من كان ذا هيا　　م وحزن فقد برا
غير محبوبة التى　　لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها　　كل هذا لتقبرا
أن موت الكئيب أصـــلح من أن يعمرا

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها ، وكان بغا حاضراً — وهو خدينه وقسيمه فى التغلب على الملك والعبث بالخلافة — فاستوهبها منه . فوهبها له ، فأعتقها وأطلقها

(١) المرهاء التى تترك عينها بغير كحل والمتسلبة اللابسة لبس الحداد

فخرجت من سُرّ مَن رأى إلى بغداد واحتجزت نفسها عن لقاء الناس حتى ماتت

*
* *

وبعد ، فالى هذا الحد من الشواعر والمغنيات يقف القلم ، وما نحاول أن نستوعب الموضوع أو نحيط به لأنه أوسع من أن يحاط به ، واذا استصفينا من ذلك شيئاً فحسبنا أن نقول ان أولئك الجوارى أتين فى الشعر والغناء ببدع جديد ؛ فالرقة النادرة ، والخفة الساحرة ، والأنوثة الظاهرة ، وكل ما من شأنه أن يسترق عقول السامعين ويستخف ألبابهم — كل ذلك كان أوضح ما عرف به جوارى هذا العصر ، واذا علمت أن للمغنية من وسائل توطين النفوس وترويض الأرواح والاحتكام بالخواطر والمشاعر ، والامعان فى الأعماق والسرائر ما لا يتاح للرجل شىء منه سهل عليك أن تعرف قدر ما وصل النساء بهذا الفن من بعد الغاية وعلو المكان ، واذا قيل ان هناك أئمة الغناء من الرجال أمثال ابرهيم الموصلى وولده اسحاق وإبراهيم بن المهدى وأشباههم قلنا إن هؤلاء لم يكن يصطفيهم إلا الآحاد المعدودون من خلفاء الدولة وصدورها ، فكان غناؤهم خبراً من الأخبار . أما أولئك النساء فقد كن فى منال العيون والأسماع فغلب ذكرهن عن الألسنة وشاع حكمهن على النفوس ، وفوق ذلك كن من الحسن والاحسان فى ملك وسلطان ، حتى قال فيلسوف العرب وامام مفكريه أبو نصر الفارابى « إن هذا الفن لا يسمع من بين لحية وشارب » ولقد صور الشاعر البحترى هـذا الأسلوب الذى امتاز به المغنيات بقوله

وأشارت على الغناء بألحا ظ مراض من التصابى صحاح
فطربنا لهن قبل المثانى وسكرنا منهن قبل الراح

غلبة الجوارى على قلوب العرب

أما بعد فذلك الذى أسلفناه من فنون الجمال والتجمل عند الجوارى لم يكن كل ما ملكن من مواهب ، وما سلكن من مذاهب ، وما ارتدين من حسن واحسان ، وما ابتدعن من فن وافتنان ، وليس فى الكتاب مستفاض لأصفهن لك طاهيات طعام ، أو ساقيات شراب ، أو سامرات ليل ، أو ناسقات بيت ؛ على أنهن فى جملة ذلك كن صورة الحياة الناعمة ، والحضارة الباسمة ، والعيش الرغيد ، فأنت اذا تناولتها من أشتات نواحيها لا تجد إلا بهجة باهرة ، وفتنة ساحرة ، وكان أول آثار ذلك غلبتهن على قلوب الرجال ، واستحواذهن على عقولهم ، حتى لقد هتكوا فيهن ستر كل حشمة وخلعوا عذار كل وقار

وكانت بيوت الخلفاء مُسْتَنّ القُدوة ومسار الأمثال فى كل ذلك ، وأول من بذل من نفسهِ ، ورأيه ، وذخره ، وجلال منصبهِ لهؤلاء الجوارى الخليفة الثالث محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، وما كذلك كان السفاح والمنصور من قبله

أما السفاح فكان عصره عصر عزم ومضاء وهدم وبناء ، فلم يكن له متسع للهو ولا سبيل الى النساء

وأما المنصور فقد ملك عليه بناء الملك وتوطين دعائمهِ وتوفير المال لتشييده سبيل خواطره ومشاعره . وكان بخيلاً غيوراً مسوقاً الى الجد من الأمر مخوفاً مهيباً . وربما مال قليلاً الى التبسط للسماع فلم يكن يظهر لنديم ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء ، وكان بينهُ وبين الستارة عشرون ذراعاً وبين الستارة والندماء مثلها ، فاذا غناه المغنى فأطربه حركت الستارة بعض الجوارى فاطلع اليه الخادم صاحب الستارة فيقول قل له أحسنت بارك الله فيك ، وربما أراد أن يصفق فيقوم عن مجلسه

ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذلك هناك . وكان لا يثيب أحداً من ندمائهِ وغيرهم درهماً فيكون له رسماً فى الديوان ، ولم يُقطع أحداً ممن كان يضاف الى ملهية أو ضحكٍ أو هزل موضع قدم من الأرض

ولما خلف من بعدهما المهدى أراد أول أمره أن يحتجب عن الناس متشبهاً بالمنصور فلم يطق البقاء على ذلك إلاّ قرابة سنة ، ثم انكشف للندماء ، فأشار عليه عبد الملك بن يزيد قائده وصاحبه أن يحتجب عنهم ، فقال اليك عنى يا جاهل ! انما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى ، فأما مِن وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور بين الندماء والاخوان إلاّ أنى أعطيهم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطونى من فوائدهم لجعلت لهم فى ذلك حظاً موفراً . ومن ثَمَّ بدأ المهدى يتبذل

وقد غلب عليه شغفه بالجوارى ، فكان لا يطيق الصبر عن محادثتهن ومجالستهن وكان وزيره يعقوب بن داود يستثمر تلك العاطفة لنفسه، فكان اذا غضب عليه تقرب اليهِ بذكر الجوارى وأخذ يحدثه عنهن فيرضى عنهُ

وما ظنك بخليفة ينهتك فى جاريته حتى يقول فيها

أرى ماء وبى ظمأ شديد ولكن لا سبيل الى الورود
أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى
وأنك لو قطعت يدى ورجلى لقلت من الهوى أحسنت زيدى

ذلك قول المهدى فى « حسنة » جاريتهِ

وفى سبيل المهدى تداعى بنوه وحفدته . فهذا الهادى تملك زمام قلبه جاريته غادر حتى لا يطيق فيها لوماً ولا يجد عنها مصرفاً

وهذا الرشيد ، ذلك الجبار الذى يرسل الكلمة فلا يبالى أى دم سفكت ولا أى

دار قوضت . إنه لا يبالى كذلك أن يرسل الشعر الباكى المستكين فى جواريه ! واليك فاسمع قوله فى ثلاث منهن

ملك الثلاث الآنسات عنانى   وحللن من قلبي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها   وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك الا أن سلطان الهوى   وبه قوين أعز من سلطانى

وهؤلاء الثلاث هن اللاتى صرح بأسمائهن فى قوله

إن سحراً وضياء وخنث   هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها   ثلثى قلبي وتربها الثلث

وخَنث هذه احدى الجوارى المغنيات المتبذلات وتعرف بذات الخال . ولها حديث عجب ، فقد تعشقها وشبب بها ثلاثة شعراء ؛ هم ابرهيم بن المهدى ، وابرهيم الموصلى ، والعباس بن الأحنف ، وذاعت أشعارهم فيها فى نواحى بغداد ، وتجاوزت بغداد إلى ما سواها من البلاد ، وتغنى بها الموصلى بين يدى الرشيد ، ورغم كل ذلك لم يتحرج الرشيد أن يشبب بها وينهتك فيها ! ! وَتَرَسَّم الأمين أثر أبيه ، وما أظنه ابتكر ضرباً من ضروب اللهو . وأكثر ما قيل عن خلاعته ومجانته مما موهه مؤرخو الفرس ، على أنه كان أوهب الجميع فى جد وهزل . ففى ليلة وهب اسحاق الموصلى أربعين ألف دينار ، وفى أخرى وهب عمه ابرهيم مائتى ألف ، ولا تنس أنه اشترى بذلاً المغنية بعشرين ألف ألف درهم

وأما المأمون عالم الخلفاء وفيلسوفهم فقد أحدث بابتذاله حدثاً لم يسبقه أحد إليه ولا نظن أحداً لحقه فيه . فقد حدّث أحمد بن صدقة أنه دخل عليه يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزنّرات قد تزيّنّ بالديباج . وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون

فهل رأيت كهذا ؟ خليفة رسول الله ، تُشد بين يديه الزنانير وتعلق الصلبان ويُرفع الخوص والريحان ! ذلك ما تحدثنا به الأخبار عن الخليفة المأمون

وهل كان يخطر بنفسك أن يستحل خليفة المسلمين دم مسلم من اكبر رجال دولته لأنه طلب جاريته ، ثم علم أنها أصبحت حاملاً منه ، فلم يكن له سبيل اليها أما الرجل فعلى بن هشام ، وأما الجارية فتيم الهاشمية ، وأما الخليفة فالمأمون . ومتيم تلك جارية تنقل بها الرق من رجل إلى رجل ، واجتمع اليها الناس تغنيهم وتطربهم فهل تعلم مآل أمرها بعد أن قُتل سيدها فى سبيلها ؟ لقد اتخذها الخليفة المعتصم ابن الرشيد لا جارية ولا مغنية ، بل زوجة ذات اكليل وتاج

وحديث القوم كله على هذا النسق ، كلما جاء خليفة أحدث فى تبذله حدثاً واستجد جديداً . وكان من أعجب حديثهم أن المسترشد خص ولده الراشد بعدة جوار ليلاعبنه وهو صبي مراهق ، فحملت منه احداهن وهو دون البلوغ ، هكذا يقول ابن الأثير

نفوذ الجوارى

وكان من أثر تلك الغلبة على القلوب أن غلبن كذلك على سياسة الملك وتدبير الرعية

فهذه الخيزران جارية المهدى وأم ولديه موسى وهرون قد بلغت من سعة الجاه ونفاذ الكلمة ما لم يبلغهُ وزير أو أمير . وكان بابها محط الولاة والقواد ، ومهبط ذوى الحاجات والآمال ، حتى فشت فيها القالة وساء عنها الحديث . كذلك كان أمرها فى عهد مولاها وزوجها المهدى

ولما صارت الخلافة إلى الهادى درجت على سيرتها فى عهد أبيه . وكان الهادى فتى ألمعى القلب ، عزيز الجانب ، غيوراً على الحُرَم . فلما رأى الوفود تنثال على أمهِ

أرسل اليها « ألاَّ تخرج من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنهُ ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك » فلم يثنها ذلك القول الحكيم عما أَلِفَتْهُ ، حتى إذا مضى عليها أربعة أشهر جاءت مرة تكلمهُ فى أمر لم يجد إلى اجابتها إليهِ سبيلاً ، فقالت لا بد من اجابتى ! قال لا أفعل ، قالت فإنى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال ويلى على ابن الفاعلة ! قد علمت أنهُ صاحبها ، والله لا قضيتها له ، قالت إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال إذا لا أبالى ، وحمى وغضب ، فقامت مغضبة ، فقال مكانك تستوعى كلامى ! « والله — وإلا فأنا نَفِيٌّ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم — لئن بلغنى انهُ وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدمى ، لأضربن عنقهُ ، ولأقبض ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يُذَكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم اياك ! ما فتحت بابك لملّى أو لذمّى » فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة

ثم جمع الهادى قواده ورجال دولته . فقال لهم : أيما خير ، أنا او انتم ؟ قالوا بل أَنت يا أمير المؤمنين ، قال فأيما خير أُمى أَو امهاتكم ؟ قالوا بل أُمك يا أَمير المؤمنين ، قال فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بأمه فيقولوا فعلت ام فلان ، وصنعت ام فلان ، وقالت ام فلان ؟ قالوا ما احد منا يحب ذلك ، قال فما بال الرجال يأتون أُمى فيتحدثون بحديثها ؟ ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فشق ذلك عليها وحلفت الا تكلمه

ولكن هل كفاها منه ذلك الهجر ، وهل تُروى المغاضبة غليل المرأة التى ترضعها أفاويق الملك ، وتسكرها بكأسه ، وتشعرها بعزته ، ثم تعود فتكف يدها وتكم فاها وتلزمها خدرها ؟

لم يكفها منه ذلك الهجر ولا ما فوق الهجر من شقاق ومكابرة ونزاع ومعاندة بل أمعنت فى الانتقام الى آخر ما تصل اليه النفوس الممعنة فى الشر العارية من الفضيلة، فقد حرضت الأم جوارى ولدها الشاب فقتلنه بغَط وجهه والجلوس عليه حتى مات . . . أفرأيت كيف تشترى الجارية عزة الملك وزهرة الحياة بدم العزيز النجيب من بنيها

أما الرشيد فقد قضى عليه ان يمكّن فى ملكه لامرأتين : الخيزران أمه، وزبيدة امرأته ، أما الخيزران فلأنها خلعت عليهِ رداء الملك مخضباً بدم أخيه ، واما زبيدة فلأن ذات الخال واشباهها عبثن بقلبهِ ، وغلبنه على عقله ، فأراد أن يشغلها عنه

وهل ترى أعجب من أن تغنيَه ذات الخال ذاتَ عشية فيُحَكّمها فى ملكه فتسأله أن يولى صاحبها حَموَيه الخادم ولاية الخراج والحرب بفارس سبع سنين . فيصدع الرشيد بالرأى ، ثم يخشى أن يموت فى خلال هذا الأمد فيكتب عهداً على من يليهِ من الخلفاء أن يضمن نفاذ العهد للخادم الأمير! ذلك مارواه صاحب الأغانى عن الرشيد

ومضت أجيال كان فيها للجوارى عز وشان ، وملك وسلطان ، وكان من أشدهن استمكاناً فى الملك ومضاء فى الرأى أم المقتدر ، وهى جارية تركية ، فقد كان لها سطوة قاهرة على رجال الدولة ، وكانت تتصرف بالأحكام دون ولَدها ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها

وقد عَرَض الجاحظ لذوات الجاه والنفوذ من الجوارى فقال :

ثم لم يزل للملوك والأشراف اماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين، ونساء يجلسن للناس : مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ريطة ابنة أبى العباس، وسُكر وتركية جاريتى أم جعفر (زبيدة) ودُقاق جارية العباسة، وظلوم وقسطنطينية جاريتى أم حبيب، وامرأة هرون بن معبوبة، وحمدونه أمة نصر بن السندى بن شاهك

ثم كنّ يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزينّ به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب

الجوارى عيون الخلفاء

وهناك ناحية من نواحى العمل انبثثن فيها واستشففنَ أسرار الملك من خلالها وذلك باتخاذهن عيوناً على الوزراء والقواد ووجوه رجال الدولة ، فكان الخليفة يهب الرجل جارية من جواريه فترصد منهُ كل اشارة وتتسمع منهُ أو من جلسائه كل كلمة فاذا أصبح الصباح كان ذلك كله عند الخليفة . ومن أنباء ذلك ما حدث الطبرى عن يعقوب بن داود وزير المهدى قال : بعث الىّ المهدى يوماً فدخلت عليهِ فاذا هو فى مجلس مفروش بفرش مُوَرد متناه فى السرو على بستان فيهِ شجر ورءوس الشجر على صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار ، من الخوخ والتفاح ، فكل ذلك مُوَرَّد يشبه فرش المجلس الذى كان فيهِ، فما رأيت شيئاً أحسن منه ، واذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها ولا أشطَّ قواماً ولا أحسن اعتدالاً ، عليها نحو ما فى المجلس من الثياب ، فما رأيت أحسن من جملة ذلك . فقال لى يا يعقوب ! كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قلت على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به وهنأه اياه ، قال هو لك ، احمله بما فيهِ وهذه الجارية ليتم سرورك به ، قال فدعوت له بما يجب، ثم قال يا يعقوب ! ولى اليك حاجة، قال فوثبت قائماً ثم قلت يا أمير المؤمنين ما هذا الامن موجدة ، وأنا أستعيذ بالله من سخط أمير المؤمنين ، قال لا، ولكن أحب أن تضمن لى هذه الحاجة وأن تقضيها لى ، فقلت لأمير المؤمنين وعلىّ السمع والطاعة ، قال والله ! قلت والله ثلاثاً ، قال وحياة رأسى ، قلت وحياة رأسك. قال فضع يدك عليهِ واحلف به، فوضعت يدى عليه وحلفت به لأعملن بما قال، ولأقضين حاجته . قال فلما استوثق منى فى نفسه ، قال هذا فلان بن فلان من ولد على

ابن أبي طالب أحب أن تكفيني مؤونته وتريحني منه وتعجل ذلك ، قلت أفعل، قال نخذه اليك، فحولته الىّ وحولت الجارية وجميع ما كان فى البيت من فرش وغير ذلك وأمر لى معه بمائة ألف درهم ، قال فحملت ذلك جملة ومضيت به، فلشدة سرورى بالجارية صيرتها فى مجلس بينى وبينها ستر وبعثت الى العلوى فأدخلته على نفسى وسألته عن حاله فأخبرنى بها وتجمّلى فيها واذا هو ألبّ الناس وأحسنهم إبانة ، وقال لى فى بعض ما يقوله ، ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ؟ قال قلت لا والله، فهل فيك خير ؟ قال ان فعلت خيراً شكرت لك ، عندى دعاء واستغفار ، فقلت له أى الطرق أحب اليك؟ قال طريق كذا وكذا ، قلت فمن هناك من تأنس به وتثق بموضعهِ ؟ قال فلان وفلان، قلت فابعث اليهما وخذ هذا المال وامض اليهما مصاحباً فى ستر الله ، وموعدك وموعدهما للخروج من دارى الى موضع كذا وكذا (الذى اتفقوا عليهِ) فى وقت كذا وكذا من الليلة ، واذا الجارية قد حفظت علىّ قولى ، فبعثت به مع خادم لها الى المهدى ، قال : وبعث المهدى من وقتهِ ذلك فشحن تلك الطريق والمواضع التى وصفها العلوى برجاله ، فلم يلبث أن جاءوا بالعلوى نفسه وصاحبه والمال على السجية التى حكتها الجارية، قال وأصبحت من غد ذلك اليوم فاذا رسول المهدى يستحضرنى ؛ وكنت خالى الذرع غير ملقٍ الى أمر العلوى الاحين أدخل على المهدى وأجده على كرسى بيده مِخصرة فقال يا يعقوب ! ما حال الرجل؟ قلت يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه. قال مات ؟ قلت نعم !- قال والله ! قلت والله ! قال قم فضع يدك على رأسى، قال فوضعت يدى على رأسه وحلفت له به ، فقال يا غلام ! اخرج الينا ما فى هذا البيت . قال ففتح باباً عن العلوى وصاحبه والمال بعينه ، قال فبقيت متحيراً وسقط فى يدى وامتنع على الكلام فما أدرى ما اقول، قال فقال المهدى لقد حل لى دمك لو آثرت اراقته، ولكن احبسوه

فى المُطْبَق فما زال به حتى انقضى عهد المهدى والهادى واخرجهُ الرشيد فى عهده

وممن احسنوا بث الجوارى للرقابة المأمون، وكان عنده اسرار رجال دولته جميعاً ولما ذاع رايه فى خلق القرآن وخاصمه عليه قوم من سراة اهل الرأى والعلم وثبتوا على خصومته رغم ما اصابهم منه من شدة وعنت اذاع فى الناس اسرار كل منهم وخفىّ عيوبه ومكنون دخائله ! وما عرف ذلك كله الا من هذا الطريق

والعجب ان هذا الأسلوب من الرقابة قد ذاع بين الناس حتى ارصد بعضهم الجوارى على بعض ، ويعجبنى من رقيق الشعر قول الناشىء فى جارية رقيبة

فديتك لو انهم أنصفوا   لقد منعوا العين عن ناظريك
أَلم يقرأُوا ويحهم ما يرو   ن من وحى طرفك فى مقلتيك
وقد بعثوك رقيباً لنا   فمن ذا يكون رقيباً عليك

أمومة الجوارى

وكان آخر حلقة من حلقات امتزاج الفرس بالعرب واندماج العرب فى الفرس ما ناله الجوارى الفارسيات من امومة الأسر العربية ، وقليل من رجال الحواضر العربية من لم ينزع بدمه الى أم أَجنبية ، ولكى نسوق لك المثل الواضح على ما نقول نذكر أن خلفاء الدولة العباسية الستة والثلاثين كانوا — إلاَّ ثلاثة منهم — من ولد الجوارى، واذا نال الجوارى شرف ولادة الخلفاء فلم يكن عزيزاً عليهن أَن يلد مَن سواهم

وهذا هو البيت العلوى الذى ينزع بنسبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأئمة الاثنا عشر منهُ وهم الذين أَولاهم الشيعة الإمامية جانب الطاعة ، ورفعوهم إلى مواطن التقديس ، وهذا آخرهم محمد المهدى الذى يدينون بأنه لا يزال حياً حتى يأذن الله له فيخرج إلى الناس ويملأ طباق الأرض نوراً وإيماناً وعدلاً

واحسانًا، أولئك جميعًا لا نجد منهم في العهد العباسى إلا مَن كانت أمه جارية

وبعد فذلك كان شأن الجوارى فى العراق وتلك غايتهن التي انتهين إليها من الاختكام بقلب الرجل العربى، والتفرد بالمكان المحبوب فى المجتمع العربى، والتمكن من قياد الأسرة العربية، والوصول بالأمة الفارسية إلى القضاء على العصبية العربية

والآن ننتقل الى حديث الجوارى فى الأندلس ومدى أثرهن فى حياتها وقوة تأثيرهن فى نسوتها

الجوارى فى الاندلس

أقام الأمويون ملكهم بالأندلس كما أقامهُ أسلافهم بالمشرق على دعائم العصبية العربية والبداوة العربية، لأن هذه السياسة وسليتهم فى تمكين الملك ومعاناة الفتوح، فعبروا دهراً من الزمن لا يتخذون الجوارى إلا للمهنة والاستيلاد، فأما الحظوة والمكانة فللعقائل من بنات العرب

كذلك لبثوا قرنًا ونصف قرن أخمدوا فيها حمية الفتنة وسكنوا مضطرب الملك ثم بدأوا يأخذون لأنفسهم نصيبًا من الراحة ويبتغون لها طريقًا الى السرور فأصغوا الى المشرق ونظروا الى بغداد واستقدموا بعض جواريها المغنيات

قمـــر

ومن أول هؤلاء قمر البغدادية، وهى قَيْنة مغنية من أبرع قيان بغداد وأصنعهن فى الغناء وأعرفهن بفنون الكلام، سمع بها ابرهيم بن حجاج صاحب أشبيلية فى أخريات القرن الثالث فوجه إلى بغداد بأموال عظيمة اشتريت بها حتى إذا قدمت الأندلس ازدرى بها نساء العرب لأنهن لم يألفن جارية ذات مكانة، وأخذن يتهامسن إذا مرت ويتغامزن اذا غنت، فقالت هى فى ذلك :

قالوا أتت قمر في زِي أطمار   من بعد ما هتكت قلباً بأشفار
تمشي على وجل تغدو على سبل   تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرة هي من أحرار موضعها   ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم   لله من أمَةٍ تُزرى بأحرار
ما لا بن آدم فخر غير همته   بعد الديانة والإخلاص للبارى
دعني من الجهل لا أرضى بصاحبه   لا يخلص الجهل من سب ومن عار
لو لم تكن جنة إلا لجاهلة   رضيت من حكم رب الناس بالنار

وقمر هذه هي التي اعتمدت بناء الأدب النسائي بالأندلس ، وهو الذي سنصفه لك فيما يمر بك ، ومما يمثل لك أسلوب هذا الأدب أبدع تمثيل قولها تتشوق الى بغداد وتتغنى بمحاسنها وحسانها

آها على بغدادها وعراقها   وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه   تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما   خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن   في الدهر تشرق من سنا اشراقها

الناصر وجواريه

ولما وَلِى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بلغ الجوارى في عهده مبلغهن في بغداد

وكان عبد الرحمن حين وثب الى الملك في مشرق العمر ونضرة الشباب ، وكان فتى لا تساميه الرجال مضاء في العزم ولا سناء في الرأى ولا نفاذاً في التدبير ، وكانت أقاليم البلاد وأطراف الملك خاضعة للمتغلبين الذين استأثر كل منهم بما يملك من

دون المَلك الأموى ، فأراد عبد الرحمن ألا يبقى فى الأندلس من ينازعه الملك ويجاذبه السلطان ، فما زال ينتزع المتغلبين واحداً بعد واحد حتى دانت البلاد له وألقت أزمتها إليه ، ثم اندفع بجيوشه الى بلاد الفرنجة وما وراءها فدوخ مُلكَها وأفزع ملوكها وأذل رجالها وسبى نساءها حتى تحامته القياصرة وتفادته الجبابرة ، وأنشأ الجميع يهدونه أنفس ما عندهم من جوهر ومال حتى اعتلى ذروة المجد واقتعد ظهور الآمال

ومنذ ذلك العهد أخذ سيل الجوارى يتدفق على الأندلس وأخذن يسقين العرب من بنى أمية بالكأس التى شرب بها بنو العباس ، بل كان أصحابنا فى الأندلس أسرع نشوة وأشد اندفاعاً من أشباههم فى العراق كدأب المقلدين من الناس أجمعين .

هذا هو الناصر ومكانه من سناء الرأى ومضاء العزيمة ما علمْت، تغلبه جاريته الزهراء على نفسه ورأيه وهمته فيوجهها جميعاً الى تذليل المستحيل لهذه الجارية ، وان من تذليل المستحيل قيامه بابتناء مدينة الزهراء

الزهراء

واذا ذكرت الزهراء فاذكر ما يقول فيها صاحب نفح الطيب : « انه لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة أطبق الناس على أنه لم يُبنَ مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنِّحَل المختلفة من ملك وارد أو رسول وافد أو تاجر جاهد — وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كونَ مثله »

والحق أن القوة التى دفعت الناصر الى بناء الزهراء لم تكن مما يدفع الناس الى بناء قصورهم وعمائرهم ولا هى من جنون العظمة الذى دفع ملوك مصر الأقدمين

الى بناء أهرامهم ومعابدهم ، فان لهذا النوع من الجنون حداً يقف دونه أو ينتهى اليه ، ولكنها قوة ساحرة يبثها النساء فى قلوب الرجال فينخلعون عن أموالهم وأرواحهم فى سبيلها .

أرصد الناصر على بناء الزهراء ما ورثه من مال وما جلبه من مغانم ، وان تشأ فقد أرصد عليه ذخر أمم وأعلاق ملوك ، واستقدم له المهندسين من بغداد ورومة والقسطنطينية ، واجتلب له الرخام الأخضر والوردى والمجزع من افريقية وتونس وقرطاجنة وريه ورومه ، وأعطى على كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية فكان ما جلب له ست عشرة وثلثمائة واربعة آلاف سارية

وأقام الناصر على بناء الزهراء عشرين عاماً كانت تستنفد فيها كل يوم ستة آلاف صخرة غير ما كان يستنفده تمهيد طرقها وتعبيد مناهجها فذلك ليس فى هذا الحساب . وكان يقوم على البناء عشرة آلاف رجل يعملون دائبين كلما غاب منهم فوج أعقبهُ آخر .

أما وصف المدينة فما يعجز عقل الإنسان عن تصويره وتصوره ، وهو كما يقول ضيا باشا صاحب تاريخ الأندلس «كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر التى لم يخطر مثل خيالها فى ذهن بنّاء منذ برأ الله هذا الكون ولا تمثل رسم كرسمها فى عقل مهندس منذ وجدت العقول »

فأنت اذا شارفت المدينة وجدت سوراً يقوم عليه ثلثمائة برج حربى كأبراج القلاع وينتظم على محيطه ثلاثة عشر وخمسمائة وألف باب كلها من الحديد الملبَّس بالنحاس أو الآبنوس المطعم بالفضة والذهب ! فاذا نفذت الى المدينة من أحد أبوابها وجدت حديقة لا يحدها البصر، تشقها طرق منسقة وبرك وغدران تلتقى جميعاً على البحيرة العظمى التى جلب اليها اكثر ما عرف من صنوف السمك ، وكان هذا

السمك من الكثرة بحيث يستنفد اثنى عشر الف خَبزة وستة أقفزة من الحمص كل يوم . وعلى البركة تقوم تماثيل من الذهب المحلّى بالجوهر على هيئة الأسد أو الطير فوق الغصون وكلها تتصل بأنابيب من الفضة تمدها الماء من متالع جبل قرطبة، فاذا انتهى الى أجوافها سمعت له زئيراً أو صفيراً ثم تلقيه من أفواهها فى البحيرة. والى جانب من البركة حديقة للوحش ، وأخرى للطير تظللها الشبّاك

أما القصور فكانت فوق منال العقول، ومنها قصر الخلافة وكان سَمْكُه من الذهب والرخام المتماوج الشفاف ، وكانت قراميد بهو الخلافة من الذهب والفضة وفى سقفه علقت اليتيمة، وهى الدرة التى أهداها الى الناصر إليون ملك القسطنطينية وكانت تتألق فى سماء الغرفة كما يتألق النجم فى حاشية الظلام

وكان فى كل جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، وقامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى . وفى وسط هذا المجلس حوض عظيم مملوء بالزئبق وكانت الشمس تشرف على الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس فيتوهج من ذلك نور يأخذ سناه بالأبصار، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل المجلس أومأ الى رجل من مواليه فيحرك ذلك الزئبق فتومض فى المجلس بروق تغشى الأبصار وتخيل للرائين أن القصر طار بهم فيفزع الرجل حتى يقع

ومن القصور القصر المؤنس، وفيه بيت المنام، وفى وسطه الحوض الأخضر المنقوش الذى جلب اليه من بيت المقدس، وفيه نقوش وتماثيل وصور على هيئة الانسان ، وعلى جانبه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة، والماء يتدفق من أفواهها جميعاً

وبين القصور مسجد الزهراء، وهو على هذا النسق الفريد من الجلال والجمال

ومن العجيب أن الزهراء حين حلت به سألها الناصر كيف ترين هذا؟ فقالت حسن لولا أن هذا الأسود يضاجعني! وأشارت الى جبل قرطبة — فلم يكن غير قليل حتى كسي الجبل حلة مَوْشِيَّة منقطعة النظير من الزهر والريحان وشجر اللوز والصنوبر

ذلك هو القصر الذي استنفد جهد الناصر وهمته وماله عشرين عاماً ، وما كان ذلك الجنون المُبرح إلا لأن جاريته ثم زوجته الزهراء طلبت اليه بناءه فشرع به للناس شريعة الفناء في جواريهم ، ولعمري لئن رفع الناصر بنيان الدولة العظيمة وأعلى كلمتها ووحد فرقتها لقد احتفر لها القبر العميق بما مكن لهؤلاء في الملك — ملك القلوب والأجساد

صبح

وهذا ابنه الحكم قد غلبت على قلبه وعرشه جاريته صبح البشكنسية فتبادر العظماء وذوو الحاجات الى غشيان دارها وابتغاء الوسيلة عندها والزلفى اليها ، وبهذه الوسيلة انتقل المنصور بن أبي عامر من مقام الكتابة للناس على مدرجة الطريق الى مقام الوزارة بل الى مقام الملك لأنه تمكن بها من تقليم أظفار ولدها هشام بن الحكم ، وما زال ينتزع منه مظاهر الخلافة يوماً بعد يوم حتى حجبه عن الناس ومنع اسمه ان يذكر على أعواد المنابر أو يكتب في صدور الرسائل وفي طرر الدراهم ، ثم استكتبه كتاباً جعل فيه ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبي عامر دون الغطارف من قريش وسلائل الملوك من بني أمية ، فثار الأمويون لذلك ثورة دمروا فيها الزهراء وانتهبوا كنوزها ونفائسها فأصبحت فردوس الدنيا أطلالاً بالية ورسوماً عافية كل ذلك لأن الرجل توسل بدهائه وكياسته وجزيل هداياه وجميل أَلطافه الى قلب الجارية المُمَلَّكَة فما زال يصعد بها درجة بعد درجة حتى اعتلى هامة الملك

وكان كلما أراد الوثوب الى أمانيه سرها بأمنية من أمانيها حتى لقد بنى لها مرة بيتاً من الفضه لم ير الراؤون مثله

شعر الملوك فى الجوارى

وجاء سليمان بن المستعين الخليفة الأموى فاتبع خلفاء بنى العباس وأذاع شعره تغزلاً وتبذلاً فى جواريه ، مما تغنى به المغنون فى عواصم الأندلس

ومن قوله يعارض الرشيد فى أبياته التى أولها — ملك الثلاث الآنسات عنانى :

عجباً يهاب الليث حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيبا ... منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت قلبي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشترى ... حسناً وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلوّ الى الصبي ... فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وثنيننى ... فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى ... ذل الهوى ملك وعزّ ثان
ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفا بهن فلست من مروان

ومن العجيب أنك لا ترى عشاق الجوارى مهما عز جانبهم وتسامت منازلهم إلا أرقاء فى ألفاظهم أذلاء فى مشاعرهم وضعاء فى ألفاظهم يتوسلون إلى جواريهم بالذل ويقدمون اليهم أعناقهم للرق ولا ترى ذلك فى شعر من أضناه حب الحرائر من بنات العرب ، بل أنه لا يتقدم اليهن إلا بغُرّ مآثره وعُظْم مفاخره

هذا المستظهر بن هشام وهو خليفة المستمين ونظيره فى جلال لقبه وسناء حسبه أحب أن يتزوج فتاة من قرابته فمطلته أمها فقال فيها بعض ما استفاض من عاطفته شعراً يفيض عزة وإباء ، وكان مما قال :

يكلفها الأهلون ردى جهالة ... وهل حَسَنٌ بالشمس أن تمنع البدرا
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت ... جلالة قدرى أن أكون لها صهرا
وانى لأرجو أن أطوف بمفخر ... بملكى لها وهى التى عظمت فخرا
وانى لطعّان اذا الخيل أقبلت ... جرائدها حتّى ترى جُونها شُقرا
وانى لأولى الناس من قومها بها ... وأنبههم ذكراً وأرفعهم قدرا
جمال وآداب وخُلق موطأ ... ولفظ اذا ما شئت اسمعتك السحرا

المعتمد وجواريه

ولعل أتمس مثل من أمثلة تبذل الملوك فى جواريهم وتهورهم فى مرضاتهن واندفاعهم إلى أعماق الهاوية من جرائهن المعتمد على الله محمد بن عباد صاحب أشبيلية ووارث ملك بنى أمية ، فقد أنهَب نفسه حظاياه فسبين لبه واقتسمن قلبه ومن حديثه أنه أرسلهن ذات عشية من قرطبة إلى أشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح ، ثم عاد عنهن وهو من فراقه فى حسرة والتياع ، ومما قاله

سايرتهم والليل اغفل ثوبه ... حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثَمَّ مسلما وتسلمت ... منى يد الاصباح تلك الأنجما

وقال فى موقف الوداع

ولما وقفنا للوداع غُدَيّة ... وقد خفقت فى ساحة النصر رايات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا ... بِجَرْى الدموع الحمر فيها جراحات

اعتمـــاد

وكان أشدهن امتلاكاً له واحتكاماً به جاريته اعتماد الرُّميكية التى اشتراها من رميك بن حجاج ، واليها ألقى زمامه وفى سبيلها أرخى عنانه ومن اسمها اشتق اسمه فتسمى بالمعتمد ، وتلك التى يقول فيها الوزير الشاعر محمد بن عمار

تَزوجتَها من بنات الهجان   رميكية لا تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير الذراع   لئيم التجارب عماً وخالا

وكانت اعتماد لا تشعر بأن فى الحيـاة أمنية عزيزة أو مطلباً بعيداً ، فما نزعت نفسها الى شيء حتى وجدته بين يديها على أحسن صوره وأتم وجوهه، ولقد رأت مرة فتيات اشبيلية يملأن الجرار من النهر وفى اقدامهن أَثر الطين فأحبت ان تطأ الطين كما يطأن وتحمل الجرة كما يحملن، فصنع لها المعتمد جرة من سبيك الذهب وأوطأها المسك معجوناً بماء الورد والغالية . وشاءت المقادير أَن ينهك هذا الترف قوة الملك وان يطمع فيـه العدو المتغلب وان يعرف ذلك يوسف بن تاشفين أَمير الملثمين بالمغرب فيخوض البحر الى أَشبيلية ويقصى العدو عن الملك ثم يقود المَلك المستهام أَسيراً ويقود صاحبته ونساءه و بناته وجواريه سبايا الى اغمات من أَعماق بلاد المغرب ، ولم تدرك الملك الملثم رقة الدين ولا نبل الخلق فألقى أَسيره المسكين مكبلاً بالحديد فى غياهب السجن بين القتلة وقطاع الطريق، وترك بناته يطفن فى الأسواق بما يغزلن من الصوف حافيات الاقدام باديات الأجسام معروقات العظام وكذلك دخلن على أَبيهن فى سجنه صبيحة عيد النحر فزفر زفرة كاد ينفطر لها قلبه ثم أَنشأ يقول :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً   فساءك العيد فى أَغمات مأسورا

ترى بناتك فى الأطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أَبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خَدَّ إلا ويشكو الجدب ظاهره ... وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردك الدهر مَنْهِيًّا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فانما بات بالأحلام مغرورا

ومن قوله يخاطب قيده حين بلغ به العظم .

قيدى أما تعلمنى مسلما ... أَبَيْت أَن تُشفق أَو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد ... أَكلتهُ لا تَهشِم الأعظما
ارحم طفيلاً طائشاً لبه ... لم يَخْشَ أَن يأتيك مسترحما
وارحم أُخَيَّات له مثله ... جرعتَهن السم والعلقما
منهن مَن يفهم شيئاً فقد ... خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما ... يفتح الا لرضاع فما

الجوارى المدنيات فى الاندلس

وتلك طائفة أخرى من الجوارى المجلوبات إلى الأندلس تصلها بغيرها صلة الاسم وتبعدها عنهن فوارق المبدأ والغاية والأثر

ولقد عُرفت المدينة منذ استوطنها اليمانون من الأوس والخزرج بالرقة والظرف واتقان الغناء والعزف ، ودرجت على ذلك فى الاسلام ، ولم تحرف عن شهرتها فى ذلك كله حتى فى عهد النبوة والخلافة

واتصل الأندلسيون بأهل المدينة فى مواسم الحج واستمعوا غناء جواريهم ، فذهبن بهم كل مذهب من الطرب والاعجاب . وسارت الأنباء بذلك إلى الأمير

عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس، فاستقدم منهن جماعة عرفن بالأدب الغض والشعر الرائع والغناء البديع، وابتنى لهن دار المدنيات بقرطبة وأجرى عليهن المثوبة والألطاف وأوسعهن بالبر والاكرام، ومن هؤلاء فضل وعلم وقلم. وقد عرف هؤلاء جميعاً بشرف النفس ونبل الخلق وكمال الخلال. ولم يكن فيهن ما فى بنات الروم والصقالبة والجلالقة من خِلاَبة ودَعابة فهن لا يصلحن لذلك وفيهن السوداء والحمشاء، والعجفاء، ولكنهن مع ذلك كن مشرقاً من مشارق الجمال الفنى فى تلك البلاد. ولقد يجمل بنا أن نسوق حديثاً طريفاً عن إحدى هؤلاء الوافدات وتسمى بالجارية العجفاء لتعلم إلى أى حد بلغ أولئك الجوارى فى التأثير على نفوس أهل الأندلس:

قال الأرقمى: قال لى أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك — هل لك فى أحسن الناس غناء؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيي مولى ابن زهرة، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً فى مثلها، وطوله فى السماء ستة عشر ذراعاً، وفى البيت نُمْرُقتان قد ذهبت عنهما اللُّحمة وبقى السَّدى وقد حشيتا بالليف، وكرسيان قد تفككا من قدمهما، ثم أُطلِقَتْ علينا عجفاء كلفاء عليها هَرَوِى[1] أصفر غسيل، وكأن وَركيها فى خيط من وسخهما، فقلت لأبى السائب: بأبى أنت ما هذه؟ فقال اسكت! فتناولت عوداً فغنت:

بِيَد الذى شغف الفؤاد بكم ... تفريج ما ألقى من الهم
فاستيقنى أنْ قد كلفت بكم ... ثم افعلى ما شئت عن علم
قد كان صرم فى الممات لنا ... فعجلت قبل اليوم بالصرم

(١) الهروى نوع من خشن الثياب يجلب من هراة احدى مدائن خراسان «افغانستان الآن»

قال فحسنت فى عينى ، وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو السائب وزحفْت معه . ثم تغنت :

بَرِح الخفاء فأىَّ ما بك تكتم	ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمَّن من غريرٍ قَلْبُهُ	يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا	تُلْقى المراسِىَ طائعاً وتخيّم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه	ونكون اخواناً فماذا تنقم

فزحفت مع السائب حتى فارقنا النُّمرُقتين ، وربَتِ العجفاء فى عينى كما يربو السَّوِيق بماء مزنة . ثم غنت :

يا طول ليلى أعالج السَّقما	إذ حل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً	فاليوم أمسى فراقكم عُزِما

فألقيت طيلسانى ، وأخذت شاذكونة وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول رقعة فى البيت فيها قوارير ودهن ، فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب البيت — وكان أخنف — قوانينى قوانينى ! ! «قواريرى قواريرى» وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره

ومن هذا ونحوه تعلم أن هؤلاء الجوارى لم يجتلبن لما اجتلب له غيرهن . وقد حُرر هؤلاء وتزوجن وانبثثن فى أسر الأندلس يُعلمن نسوتها الأدب ، ويُرَوّينهن الشعر ويُلَقّنّهن الغناء فى حشمة ووقار

وقد ظهر فى هؤلاء الوافدين من تجاوزت الأدب والغناء إلى الفقه والحديث كعابدة المدنية ، فقد روت عن مالك بن أنس وغيره من أئمة المدينة ، قدم بها الأندلس محمد بن يزيد بن مَسلمة بن عبد الملك بن مروان ، وكان كثير الاعجاب بعلمها وفهمها ، وتزوجها بِشر بن حبيب الأندلسى فمنها سائر ولده

وتعد وفادة هؤلاء الجوارى إلى الأندلس مطلع عهد جديد للأدب والشعر والغناء بالأندلس ، وذلك ما سنتناوله بالقول عند الكلام عن الأدب النسوى بالأندلس

بنو الأغلب

ذلك حديث أهل الأندلس ، وفى مساقهم سار بنو الأغلب ملوك تونس ، وعنهم وعن ملوك العراق وردوا موارد اللهو وشربوا كئوس النعيم ، ومن بغداد وقرطبة استوردوا الجوارى الفارسيات والصقلبيات ، ومن حديثهم أن المعتمد على الله العباسى ساوم فى جارية شغفته حباً ، وأبلغها جهد ما يطيق ، وهو يومئذ ولى عهد الخلافة العباسية — فأبى عليه صاحبها وأبلغها حداً ليس فى منال ولى العهد ، فلما أعجزه شراؤها ذهب بها صاحبها الى ابن الأغلب فباعها منه

ثم لما فتحت عليهم جزيرة صقلية ومالطة تدفق عليهم سيل الجوارى الروميات فحللن من منازلهم وقلوبهم محلاً لا يرام ، حتى انتهى الأمر إلى « زيادة الله » آخر عقدهم فقسم نفسه بين مماليكه وجواريه . وبلغ من إيثاره لأحد غلمانه أن ضرب النقود باسمه ، وترك له زمام الملك يلهو بتصريفه . ثم غضب عليهِ فأقصاه ، حتى جاءت جارية فشفعت فيه ، فأعاده إلى مكانه . . . ! ! وكان مُلكاً عزيزاً فذل ، وقوة هائلة فهانت . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

الفاطميون

وجاء الفاطميون فى أعقاب بنى الأغلب ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم وما زال ظلهم يمتد وملكهم يتسع حتى وسع مصر ، وبلاد الشام ، والحجاز ، واليمن وواتهم النعمة من كل مكان ، وأضاء لهم العز من كل أفق ، وجُلِبت إليهم الجوارى

من كل قطر . ولكنهن لم يجدن عندهم من الحُظوَة والقوة ونفاذ الرأى وعلو الشأن ما وجدن فى غير مصر من سائر البلدان ، لأنهم راموا الخلافة بوسيلة النبوة المقدسة من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، ولأنهم كانوا يُرَوّجون لأنفسهم بالارجاف ببنى العباس ، وإذاعة السوء عنهم ، وقولهم فيهم إنهم ملّكوا الجوارى زمام أمورهم وقِوَام سياستهم . ولما علم المعز لدين الله — وهو لم يزل بعد أميراً على تونس — أن ابنة الأخشيد اشترت جارية حسناء من بنات بغداد لتستمتع بها ، أرسل قائده جوهراً لفتح مصر ، وقال الآن لا يصدنا عنها شىء ، فكان الأمر وفاق ما قال . وكان كل ذلك حائلاً دون بلوغ الجوارى مبلغ التغلب على قلوب خلفاء مصر والاحتكام بملكهم ، والعبث فى جماعتهم . وما زلن كما هن أدوات مهنة ووسائل زينة حتى جاء عهد المستنصر — وكان قد أوتِىَ الملك صبياً لم يبلغ السابعة ، وأقام فيهِ ستين عاماً وسبعة أشهر . ولما تنصف ذلك الأمد الطويل أدركته ملالة فمال إلى اللهو ، واستراض للجوارى ، على أن القدر لم يدعه فى لهوه طويلاً ، فأصيبت مصر بمجاعة مهلكة ذهبت باليابس والأخضر . ولبثت تجتاح الحرث والنسل وتعصف بالحَب والنوى سبع سنين دَأَباً ، حتى أشفق الخليفة على حُرمه وبناته أن يأكلهن الجوع فأرسلهن إلى بغداد ، وحتى لم يبق فى دار الخلافة إلا جواد مهزول يركبهُ الخليفة ويسير من حوله حرسه وحاشيته مشاة يميد بهم سكر الجوع . وكان الملك من كل ذلك عظة بالغة ، فإنهُ أقلع من بعدها عن اللهو وأناب إلى الله . وجاء الملوك من بعده فلم يكن منهم إلى جواريهم نزوع شديد كالذى كان فى قرطبة وبغداد

☆
☆ ☆

ذلك الذى بسطته لك شأن الجوارى فى العالم العربى ، وقد ذكرتهُ لك ضافياً مستفيضاً لأنهُ أقوى المؤثرات فى حياة المرأة العربية . وسنجلو من ذلك الحديث

وجه العظة ونستخلص مدى الأثر حين نعرض لتلك المرأة وما نالها فى هذه الدول من خير أو شر . وننتقل بمعونة الله وتوفيقه إلى ذكر الديارات المنبثة فى بلاد العرب وما أنشئت له من غاية ، وما كان لها من أثر

الديارات

كان الفرس فيما قصدوا إليه من نشر آدابهم وبث حضارتهم ينزعون إلى غاية واحدة هى إخماد العصبية العربية ليتم لهم ما أرادوا من إعادة مجدهم الغابر وملكهم القديم ، وما عليهم من سبيل أن يرتدوا لبوس الدين طائعين أو خادعين

أما الروم والسريان ومَن سواهما من نصارى المشرق والمغرب ، فقد كان همهم من العرب غيرَ همّ الفرس منهم . وغاية هؤلاء أن ينقُضوا دعامة الإسلام ليشقوا الصفوف للنصرانية فى بلاد العرب ، فأخذوا يُقلّبون للاسلام وجوه الحيلة ، ويفوّقون عليهِ سهام الغيلة ، ويحشدون عليهِ جيوش التدبير ، ولكنهم قوم أولو سياسة ودهاء فهم لا يخطبون فى حفل ، ولا ينطقون فى جمع ، ولا يبعثون كتاباً ، ولا ينمقون صحيفة ، ولا يبادهون أحداً برأى ، ولا يشافهون أحداً بمكروه . بل أخذوا يمزجون العسل المصفّى فى السم المذاب ، وأنشئوا يبثون الشكوك والشبهات فى مزاج من المآرب والشهوات . وذلك ما أَعدوه فى دياراتهم التى نثروها فى كل مكان من بلاد العرب

وكانت عناية القوم بتنظيم دياراتهم وتنسيقها واختيار مواطنها الصالحة لها مما يفوق كل عناية ، واكثر ما تكون فى أرباض المدن وبين أشتات القرى وعلى طرق القوافل ، وفى منقطع الصحراء ، وفوق سفوح الجبال ، وفى كل مكان يكون انتياب الناس له وتواردهم عليه

وعلى الرغم من تكاثر الديارات وانشعاب مواطنها وترامى قواصيها وتباين بلادها كانت كلها على نسق واحد من الجمال الغض الذى تنساق النفوس اليه ويحلو العيش فيه . فهناك فى نجوة من الأرض تجد خميلة من الزهر قد عكفت عليها ظُلّة من الكرم وانبعثت من ورائها أصوات ندية يحمّلها إيقاع جاوز غاية الابداع ؛ منظر يستهوى السمع والبصر ويستخف الأجسام والأحلام ، حتى إذا دخلها الداخل — وهى لا تمتنع على قاصد — وجد النسيم بارداً خفاقاً والماء صافياً سلسالاً والخمر صرفاً معتقة، ووجد فوق ذلك إن شاء طعاماً هانئاً ومناماً هادئاً، وليس ذلك بشىء فى جانب ما يسلب نهاهم من وَلَه العشق وفتنة الجمال

ولشد ما غشيت تلك الديار بذوى الأخطار من خلفاء الدولة وامرائها وساستها ووزرائها وكتابها وشعرائها ، فكان لهم منها مآب طيب وجدوا فيه كل ما تشتهى النفس من مطاعم ومشارب وأغراض ومآرب ينبئك عنها ما سار من شعرهم فى وصف تلك الديارات وأفنانها وحسناتها وحسانها وما أصابهم تحت ظلالها من حب شرد أحلامهم وسهّد أجفانهم وأحرق اكبادهم ، وبين هذه المنايا وتلك المنى أثيرت روح الشبهات على الاسلام وعصفت ريح الزندقة والالحاد . وليس من الحق أن نتهم العلم الذى نقله العرب عن أمم الحضارة باثارة الشكوك والرِّيَب فما عرف عن أئمة هذه العلوم إلا الدين الصريح والايمان الصحيح ، وإنما الملحدون جماعة من الشعراء والمتأدبين والمتبطلين وأشباه المتعامين ممن ألفوا غشيان تلك الديارات وأقاموا فيها ما أقاموا ثم انثنوا عنها بلا قلب ولا لب ولا دين ولا عقيدة . على أن الذى يعنينا الآن من هذه الديارات أن العرب أصيبوا فيها بنوع من الفتنة أشجى قلوبهم وأطال عناءهم لأن هذا الجمال الذى رأوه لم يكن مما ابتذلته عيونهم وملكته أيمانهم . وكثير من ذوى الرأى والعلم كان يذهب إلى تلك الديار فيقيم فيها ما شاء

أن يقيم فاذا انصرف عنها شغفه الحب وشغله النوح عن بيته وآله ، وما ظنك برجل من خاصة رجال الملك يسير فى ركاب مولاه سميراً ونديماً حتى يبلغ ديراً فينفتل اليه ليلهو بالنظر اليه لحظة ثم يعود فما هو إلا أن قدموا له الشراب والطعام والكأس والنِّدام حتى ينسى الملك فيشرب وينام ، وذلك ما يحدث به اسحاق بن ابراهيم الموصلى فيما رواه عنه صاحب الأغانى ، قال :

خرجنا مع الرشيد يريد الرَّقة فلما صرنا بالموضع الذى يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد فى طلب الصيد ، ولاح لى دير فقصدته وقد تعبت فأشرفت على صاحبه فقال هل لك فى النزول بنا اليوم ؟ فقلت إى والله وانى الى ذلك لمحتاج ، فنزل ففتح لى الباب وجلس يحدثنى — وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بنى أمية — فجعل يحدثنى عمن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم وعرض علىّ الطعام فأجبته، فقدم إلىّ طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه، وأتانى بشراب وريحان طرى فشربت منه، ووكل بى جارية تخدمنى راهبة لم أرَ أحسن وجهاً منها ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتبهت عشاء فقلت فى ذلك

بدير القائم الأقصى ... غزال شادن أحوى

بَرَى حُبِّى له جسمى ... ولا يعلم ما ألقى

وأكتم حبه جهدى ... ولا والله ما يخفى

وركبت فلحقت بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب وطلبنى فلم أوجد ، وأخبرت بذلك فغنيت فى الأبيات ودخلت اليه ، فقال لى أين كنت ويحك ! فأخبرته بالخبر وغنيته الصوت فطرب وشرب عليه حتى سكر وأخّر الرحيل فى غد ومضينا الى الدير ونزله فرأى الشيخ واستنطقه ورأى الجارية التى كانت تخدمنى بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ودعا بالشراب وأمر الجارية التى كانت بالأمس تخدمنى ان

تتولى خدمته وسَقْيه ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين فرحلنا ، فلما صرنا بتل عزاز من دابق خرجت أنا وأصحاب لى نتنزه فى قرية من قراها فأقمنا بها أياماً وطلبنى الرشيد فلم يجدنى، فلما رجعت أتيت الفضل بن الربيع فقال لى أين كنت ؟ طلبك أمير المؤمنين فأخبرته بنزهتنا فغضب وخفت من الرشيد أكثر مما لقيت من الفضل فقلت

إن قلبى بالتل تل عزاز ... عند ظبي من الظباء الجوازى

شادن يسكن الشآم وفيه ... مع ظَرْفِ العراق شكل الحجاز

يا لقومى لبنت قَسٍّ أصابت ... منك صفو الهوى وليست تجازى

وغنيت فيه ، ثم دخلت على الرشيد وهو مغضب فقال أين كنت ؟ طلبتك فلم أجدك ! فاعتذرت اليه وانشدته هذا الشعر وغنيته إياه فتبسم وقال عذر وأبيك أى عذر، وما زال يشرب عليه ويستعيدنيه ليلته جمعاء حتى انصرفنا مع طلوع الفجر، فلما وصلت الى رحلى اذا برسول أمير المؤمنين قد أتانا يدعونا فوافيت فدخلت واذا ابن جامع يتمرغ على دكان فى الدار وهو سكران يتململ ، فقال لى يا ابن الموصلى أتدرى ما جاء بنا ؟ فقلت لا والله ما أدرى، فقال لكن والله أدرى دراية صحيحة جاءت بنا نصرانيتك . . . عليك وعليها . . . وخرج الآذن فأذن لنا فدخلنا ، فلما رأيت الرشيد تبسمت فقال لى ما يضحكك فأخبرته بقول ابن جامع فقال ماصدق ما هو إلا أن فقدتكم فاشتقت الى ما كنا فيه ، فعودوا بنا فعدنا فيه حتى انقضى مجلسنا وانصرفنا . . .

ذلك مثل من حديث الديارات ، ومثله جمٌّ كثير ، وما نحاول أن نتهم تلك المعابد بأنها كانت من مباذل القوم ودور خلاعتهم ، ولا بأن رهبانها أباحوهم ما أرادوا من لهو ومجانة ، ولكنهم وجدوا فيها فناً من الجمال لم يحوزه فى بيوتهم ،

ولم تنبسط عليه أيديهم ، وأصاب ذلك منهم نفوساً مبيحة ، وسرائر نازعة ، فشغفوا به ، وشُغِلوا بالحديث عنه ، وغرهم من أمره ما وجدوا من تبسط الرهبان لهم بالسَمَر والمحادثة ، وبالمحاورة والمجادلة ، وبالكرم والضيافة ، وبكل ما تسكن اليه النفس وتطيب به ، فاذا رأيت انخلاع القوم فى الفتنة بهذه الديارات فانما هى فتنة الطمع فيما عز عليهم ، والتشبيب بما ندّ عن حياتهم ، والولوع بفنون الجمال المتناسقة هنالك من ظل وبستان ، ورَوْح وريحان ، ووجوه حسان ، وشراب روىّ ، ومسمع ندىّ ، وما الى ذلك من فتنة السمع والبصر والنفس والقلب

وجميل بنا أن نلم المامة بأشهر الدِّيَرَة التى فتنت العرب وأثارت مشاعرهم وأرسلت أشعارهم ، ومن جملة ما يساق لك من الشعر تعلم كيف كان شغف القوم بتلك المواطن

مِن ديارات العراق

دير أحويشا

ومكانه بديار بكر ، وكان غاية فى السعة والبهاء ، وحوله البساتين والكروم ، ويحمل خمره الى ما حوله من البلدان لجودته ، وإلى جانبه نهر يعرف بنهر الروم وفيهِ يقول محمد بن طنّاب الشاعر

وفتيان كهمّك من أناس	خفاف فى الغدو وفى الرواح
نهضت بهم وستر الليل مُلْقًى	وضوء الصبح مقصوص الجَناح
نؤم بدير أحويشا غزالاً	غريب الحسن كالقمر اللَّيَاح
وكابدنا السرى شوقاً اليه	فوافينا الصّبّاح مع الصباح
نزلنا منزلاً حسناً أنيقاً	بما نهواه معمور النواحى
قسمنا الوقت فيه لاغتباقَ	على الوجه الجميل ولاصطباح

وظلنا بين ريحان وراح   وأوتار تساعدنا فِصاح
وساعفنا الزمان بما أردنا   فأبنا بين ريحان وراح

دير الأعلى

ومستقره بالموصل فى أعلاها على جبل مطل على دجلة ، يضرب به المثل فى رقة الهواء ، وحسن المستشرَف ، وفيه يقول الخالدى

قمر بدير الموصل الأعلى   أنا عبده وهواه لى مولى
لثِم الصليب فقلت من حسد   قُبَلُ الحبيب فمى بها أولى
جُدْلى بِإحداهنَّ تَحْوِ بها   قلبي نحبتـــه على المقلى
فاحمر من خجل وكم قطعت   عينى شقائق وجنـة خجلى
وثَكِلْتُ صبرى عند فرقته   فعرفت كيف مصيبة الثكلى

دير باشهرا — على شاطىء دجلة بين سامرَّا وبغداد ، وفيه يقول أبو العيناء

نزلنـــا دير باشهرا   على قسيسه ظهرا
على دين يسوعىّ   فما أسنى وما أمرا
فأولى من جميل الفعْـــل ما يستعبد الحرا
وسقَّانا وروَّانا   ورابطنـــا به عشرا

دير الثعالب — على مقربة من بغداد ، وبينه وبينها ميلان ، ومَدَاه أكثر من ميل وفيه يقول محمد بن جعفر العباسىّ

دير الثعالب مألف الضلاّل   ومحل كل غزالة وغزال
كم ليلة أحييتها ومُنادمى   فيها أغنُّ مقطّع الأوصال
وسقيته وشربت فضلة كأسه   فرويت من عذب المذاق زُلال

دير درمالس — فى جانب من بغداد ، وهو نَزِه كثير الأشجار والبساتين ، وفيه يقول احمد بن حمدون النديم

يا دير دُرمالس ما أحسنك ... ويا غزال الدير ما أفتنك
لئن سكنت الدير يا سيدى ... فان فى جوف الحشا مسكنك
ويحك يا قلب أما تنتهى ... عن شدة الوجد لمن أحزنك
ارفق به بالله يا سيدى ... فانه من حتفه مكنك

دير قُنَّى — على مدى ستة عشر فرسخاً من بغداد ومسافة ميل واحد من دجلة وفيه يقول محمد بن الحسن القُمىّ

يا منزل اللهو بدير قُنَّى ... قلبي إلى تلك الربا قد حنّا
سقيا لأيامك لما كنا ... نمتار منك لذة وحسنا
أيام لا أنْعَمُ عيشا منا ... اذا انتشينا وصحونا عدنا
وإن فَنِى دَنٌّ بَزَلنا[1] دَنَّا ... حتى يُظَنَّ اننا جُنِنَّا
ومسعد فى كل ما أردنا ... يحكى لنا الغصن الرطيب اللدنا
أحسن خلق الله إذ تثنى ... وجس زير[2] عوده وغنَّى
بالله يا قسيسَ بَابَا قُنَّى ... متى رأيت الرشأ الأغنا
متى رأيت فتنتى تجنَّى ... آهٍ إذا ما ماس أو تثنى

أسأت إذ أحسنت فيك الظنا

دير قوطا — على مقربة من البَرَادان بينه وبين بغداد ، وهو من أبهج الديارات وأحسنها وأكثرها خمائل وبساتين . وفيه يقول عبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع

(١) بزل الخمر ثقب إناءها (٢) الزير الدقيق من الاوتار

يا دير قوطا لقد هيجت لى طربا أزاح عن قلبيَ الأحزان والكُربَا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها لما وصلت به الأدوار والنُّخُبا
فى فتية بذلوا فى القصف ما ملكوا وأنفقوا فى التصابى العِرضَ والنشبا
وشادن ما رأت عينى له شبهاً فى الناس لا عجماً منهم ولا عربا
إذا بدا مقبــــلا ناديت واطربا وان مضى معرضاً ناديت واحربا
أقمت بالدير حتى صار لى وطنا من أجله ولبست المِسح والصُّلُبَا
وصار شماسه لى صاحبا وأخا وصار قسيسه لى والداً وأبا

دير اللج — من ديارات الحيرة، وليس فى الحيرة موطن أحسن بناءً ولا أنزه موضعاً منه، وفيه قيل

سقى الله دير اللج غيثاً فانه على بعده منى إلىّ حبيب
قريب إلى قلبى بعيدٌ محله وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيِّج ذكراه غزال يحله أغن سحور المقلتين ربيب
إذا رجَّع الانجيل واهتز مائداً تذكر محزون وحن غريب
وهاج لقلبى عند ترجيع صوته بلابل أسقام به ووجيبُ

ومن ديارات الشام

دير صليبا — وهو فى قبالة باب الفراديس من دمشق، وفيه يقول أبو الفتح محمد بن على

جنَّةٌ لقِّبت بدير صليبا مبدعاً حسنه كمالاً وطيبا
جئته للمقام فيــه يوماً فظَلْنَا فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
شجر محدق به وميـــــاه جاريات والروض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحى به الشَّـــاكل مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدراً به فوق غصن ... مائس قد علا بشكل كثيبا
وشربنا به الحيـــــاة مداما ... تطلع الشمس فى الكئوس غروبا

دير الطور . وهو غير دير طورسينا — ومكانه بين طبرية واللَّجُون ، وحوله الكروم والبساتين ، ومن دونه الغَوْر والمرْج ، وفيه يقول الشابشتى

قد أبانت لِيَ الرياض من الزهـــر غريب الصنوف والألوان
وبدا النرجس المفتح يرنو ... من جنون الكافور بالزعفران
وقف الطلّ فى المحاجر منها ... ثم ماست فانهلّ مثل الجُمان
يا غلام اسقنى فقد ضحك الوقـــت وقد تمّ طيب هذا الزمان
أدْنِ منى الدنان ، صُبَّ الأباريـــق ، استحثَّ الكؤوس ، صف القنانى
بادر الوقت واغتنم فرصة العيـــش ولا تُكْذبَنَّ فالعمر فان

دير المصلَّبة — وموضعه فى ظاهر بيت المقدس ، وهو دير نَزِه بديع الموقع حسن المنظر تحف به أشجار التين والزيتون والكروم ، وفيه يقول الحسن الغزِّىّ

يا حسن أيام قطعتُ هنيئةً ... بالدير حيث التينُ والزيتونُ
دير المصلَّبة الرفيع بناؤه ... تفدى عبيرَ ترابه دارين
ومزنَّرين إذا تلوا انجيلهم ... وتعطفوا فمائم وغصون

....

وسعوا بكاسات المدام وما دروا ... أن للكؤوس الدائرات جنون
فقضيت بينهمُ زمانًا لم يزل ... عندى إليه تشوق وحنين
تلك المنازل قد سفحن مدامعى ... لا مصر قاطبة ولا جيرون

دور المآثم

وامتد لسان الفتنة وأمعنت وسائل العيث حتى انبثت بيوت الدعارة وهى التى كانوا يدعونها بيوت الكشاخنة بين دور الحرائر فى أشتات الحواضر ، وكانت أثراً محتوماً من آثار احكام الترف وتفاقم الشهوات وازدياد الجوارى عن حاجة المحتاج ، وكان ظهور تلك الدور فى دار السلام أكفى دليل على عُتُوّ ريح الشهوة وامعان سلطانها فى النفوس . وقد بسط الجاحظ فى رسالة القيان حديث تلك البيوت وذكر كيف كانت تستباح فيها الأعراض وتنتهك فيها الحرمات . والعجب أن ترى رجلاً من سُمّار الملوك وندمائهم وذوى المنزلة الدانية منهم مثل اسحاق الموصلى يذيع شعره فى رثاء امرأة من صواحب تلك البيوت ، وذلك ما يقوله فى هشيمة الخمّارة :

أضحت هشيمة فى القبور مقيمة ... وخلت منازلها من الفتيان
كانت اذا هجر المحب حبيبه ... دبت له فى السر والاعلان
حتى يلين لما يريد قياده ... ويصير سيئُه الى الإحسان

هذا اسحق نديم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ومغنيهم وشاعرهم فمن منهم تنكر له أو تغير عليه من أجل ذلك ؟ !

وكما ذاعت بيوت الدعارة فى حواضر البلاد ذاعت كذلك الحانات فى غير سر ولا استخفاء ، وما ظنك بالخليفة الواثق يعقد حانتين احداهما فى دار الُحْرَم ليغشاهما ويمتع نفسه بما يقال وما يُدار فيهما ، واليك فاسمع حديث صاحب مسالك الأبصار فى سياق ذلك :

قال حمد بن حمدون : كان الواثق يحب المواخير[1] وما قيل فيها وما غُنِّيَ به فى ذكرها ، فعقد حانتين إحداهما فى دار الحرم والأخرى على الشط وأمر بأن يُختار له خمّار نظيف جميل المنظر حاذق بأمر الشراب ولا يكون إلاّ نصرانياً من أهل قُطْرَبُّل[2] فأتى بنصرانى له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة، فجعلهم الواثق فى الحانتين وضم اليهم خدماً وغلماناً وجوارى رومية وأخدم النساء حانة الُحْرم والرجال حانة الشط ، ونقل اليهما طرائف الشرب وفرشهما من فرش الخلافة وعلق عليهما الستور وجعل فيهما الأوانى المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه .

فلما فرغ منهما أمر باحضار المغنين والجلساء ولم يدع أحداً من ضُرّاب الطنابير إلاّ أحضره وحضرنا وخرج الخمار هو وأولاده معه عليهم الأقبية المسهّمة وفى أوساطهم الزنانير المحلاّة ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل فى الصوانى . وأخرجت تلك الدنان المذهبة فأقيمت بازاء المجلس الذى كان فيه جالساً فبُزلت كما يفعل فى الحانات ، وجعل يُؤتى بالأنموذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كل منهم ما يشتهيه فيأخذ دَنّاً ويجىء الى الخمّار ويكتال منه بمكيال فى إنائه كما يُفعل فى المواخير ويوضع على رأس الحضور أكاليل الآس وما أشبهه من الرياحين .

فشرب الواثق شرباً كثيراً وأمر للخمار بألف دينار ولزوجته بألف دينار ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار .

وحكى الحسين بن الضحاك قال : قال لى الواثق : هل لك فى حانة الشط ؟ فقلت إى والله يا أمير المؤمنين ! فقام اليها فشرب هناك وطرب وما ترك أحداً من الجلساء

(١) الماخور بيت الريبة ومن يلى ذلك البيت ويقود اليه (٢) قطربل ضاحية من ضواحى بغداد الى الغرب والشمال منها وهى مأثورة بجودة خمرها ورفاهة حاناتها وقد ذكر الشعراء واستهاموا بذكرها

والمغنين والحشم إلاّ أمر له بصلة ، وكان من الأيام التى سارت أخبارها وذُكرت فى الآفاق .

فلما كان من الغد غدوت عليه فقال : أنشدنى يا حسين شيئاً قلته فى يومنا هذا الماضى فأنشدته :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تفقدينا دَعابات الامام ولا طيب البَطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالُعَنَا فى غير فاحشة إذا تُطَرِّبُنا الطنبور أحيانا
وسلسل الرطلَ عمرو ثم عم بنا السـ قيا فألْحَقَ أخرانا بأولانا
سقيا لعيشك من عيش خصصتُ به دون الدساكر من لذات دنيانا

قال فأمر الواثق لى بصِلة سنية مجددة واستحسن الشعر وأمر أن يُغَنَّى فيه

ومن ذلك الغَور العميق أصيبت الدولة العباسية بالداء الدوىّ والنازلة المضْنِيَة

والحق أن هذا العصر العباسىّ سما بالعقل الانسانى من طريق العلم والتفكير الى أبعد الآماد وأقربها من الكمال ، فهم قد ترجموا علوم الأمم السالفة وناقشوا مسائلها وابتكروا علوماً سواها فى أقل من خمسين عاماً ، وهم قد تناولوا الأدب العربى فهذبوه وجمّلوه وألبسوه حلّةً مذهبة اللفظ ضافية الخيال ، وهم بحثوا فى الكتاب والسنة وقيدوا منهما مسائل التشريع وابتدعوا من العلوم ما يكشف عن أسرار القرآن الكريم ويوضح مقاصده ويبحث علومه وحقائقه ، ولكن ضعف النفس يطغى على قوة العقل فيقسرها كما تشيع آفة النبات فى العود الناضر فتضنيه وتقصفه ثم تسرى منه الى المرج الخصيب فتفتك به وتذهب بريحه

وكان فى الدولة البررةُ والأتقياء ، ولكن التقى والبر يكمنان فى الفتنة العاصفة ويَسكنان فى الهيضة الجامحة ويخشيان صولة الألسنة الباغية . وماذا يقول البررة

الأتقياء فى هـذا العهد وهم يرون أمام العراق أبا حنيفة ينكر على الشاعر الخليع يحيي بن زياد بعض خلاعته فيجيبه يحيي بقوله

ان كان نُسْكُكَ لا يتمُّ ... بغـير شتمى وانتقاصى
فاقعد وقم بى كيف شئـ ... ـت مع الأدانى والأقاصى
فلطالما زكيتنى ... وأنا المقيم على المعاصى
أيام نأخـذها ونعـ ... ـطى فى أباريق الرصاص

فيسمع الامام بعض هذه الأبيات فيبكى اشفاقاً على نفسه من لوثة ذلك الشعر ومن اذاعة هذا السوء ويرسل الى الشاعر من يستوهب منه نفسه فبعد لأى يهبها له

هذا مثل من احتكام الشر بالخير والفجور بالتقى ونموذج من غلبة صوت المجان والخلعاء على وعظ البررة الأتقياء فأيهم بعد ذلك يقدم على النصح ويهم بالارشاد؟ على أن الفقهاء والعلماء نالوا كذلك من طيبات هذه الحياة ونعموا بمناعمها وان وقف أكثرهم عند حد السائغ البرئ من هذه الحيـاة . ولكن هذا السائغ البرئ اذا سرى فى رجال الدين قعد بهم عن احتمال البلاء ومعاناة الأذى فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك ما كانوا عليـه فى هذا العصر الحافل بالمناعم والمآثم

المرأة العربية فى العراق

كيف كان العباسيون ينظرون إلى المرأة

كان مما قضى الله أن ينشطر البيت الهاشمى فى الدولة العباسية إلى شطرين متنافرين لا تعطفهما عاطفة الدم ولا تأخذهما وشيجة الرحم ، بعد أن أقاما منذ لحق النبي بربه أسرة واحدة لا تزعجها الحوادث ولا تفرقها الخطوب، وبعد أن بُثت دعوة الخلافة لهما معاً باسم الرضى من آل بيت رسول الله . فلما وَلِى الخلافة أبو العباس السفاح سليل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نهض من بعده أخوه أبو جعفر المنصور ثم نظر المنصور إلى ولده محمد المهدى — لما كان ذلك عرف العلويون وهم سلائل رسول الله وأحفاد على بن أبى طالب أن بنى عمهم الذين قاسموهم احتمال الظلم والخسف فى عهد بنى أمية غلبوهم على أمرهم واستأثروا بالخلافة من دونهم وهم أمسُّ برسول الله رحماً ، وأدناهم من الخلافة يداً ، لأنها رَوِيَت بدمائهم، ونهضت بأسماء الشهداء من قتلاهم ، فاحتجزوا بأنفسهم وأطالوا النظر فيما عساهم يفعلون ؛ وهكذا انصدع البيت العظيم ونظر بعضه الى بعض نظر المقهور إلى قاهره والموتور الى واتره ، ثم خرج إمامهم النفس الزكية محمد بن الحسن ومعه أهل المدينة وجمهور من أهل العراق على الخليفة أبى جعفر، ولم يكن غير قليل حتى التقى الجيشان ، وبينا رماح الفريقين مشتجرة وسيوفهم متقطرة كان الامامان محمد بن الحسن وأبو جعفر المنصور يتساجلان الرسائل ويتناظران بالكتب ليكسب كل منهما عطف جمهور المسلمين وانحيازهم اليه ، وفى هذه الكتب يطاول كلاهما صاحبه بما له من فضل السبق وكرم العرق وقوة القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مما نفخر به محمد أمومة سيدتي نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله وخديجة أم المؤمنين ، فكان مما أجاب به أبو جعفر « أما بعد فقد أتاني كتابك ، وبلغني كلامك، فاذا جل فخرك بالنساء لتُضِل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعَصَبة والأولياء » ومن ثم أخذ العباسيون يتناولون أمر المرأة بالتهوين وقرابتها بالوهَن وعقدتها بالانحلال كلما سنحت سانحة أو جدَّت داعية، وأخذ شعراؤهم وعلماؤهم وذوو آرائهم يُبْعِدون مَدَى ما بين الرجل والمرأة كأن الله تعالى لم يجمع بينهما في كل موطن من كتابه العزيز .

ولما قال مروان بن أبي حفصة شاعر بني العباسيين يخاطب العلويين ويمدح العباسيين

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب كل يوم زحام
أرضَوْا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثة كل أصيدَ حام
أنَّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

بذل له الرشيد مائة الف وعشرة آلاف درهم . وما زال شعراء العراق يتداولون هذا المعنى تزلفاً لبني العباس واستدراراً لأموالهم ويكثرون الأخذ به واللجاج فيه حتى قال محمد بن يحيي التغلبي رداً عليهم

لم لا يكون — وإن ذاك لكائنٌ — لبني البنات وراثةِ الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وانما صلى الطليق مخافة الصمصام[1]

وما زالت المرأة مبثَّ هم ابي جعفر ومثار ألمه فلم تفته حتى في آخر عهده من الدنيا وأول عهده من الآخرة حيث كانت آخر وصيته لولده المهدى « وإياك والاستماع إلى مشورة النساء وأظنك ستفعل »

(١) يريد بالطليق العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يظهر اسلامه الا حين رأى جيوش الرسول قاصدة مكة والشاعر يرى أنه لم يسلم الا خوفا من السيف

ولعل أوضح مظهر من مظاهر اساءة بنى العباس الى المرأة وتهوينهم من أمرها ودفعهم لها عن مواطن الحياة العامة ما كان من الخليفة المستنصر حين علم بولاية شجرة الدر أمْرَ مصر، فانه على الرغم من رضاء شعبها بها واطمئنانه لحكمها كتب إلى أمراء المماليك يقول لهم :

« أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها ! أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة» ثم ختم رسالته بانكار شديد ووعيد وتهديد وتمثل بعد ذلك بقول من قال

النسا ناقِصَات عقل ودينٍ ... ما رأينا لهن رأياً سنيّا
ولأجل الكمال لم يجعل الله ... تعالى من النساء نبيا

ومن كل ذلك نعلم أن بنى العباس كانوا ينظرون إلى المرأة بمؤخَّر عيونهم حتى لا ينازعهم بنو عمهم زمام الملك باسمها ولا يساموهم بسموّها ، وأما تركهم الاماء يصرِّفن قياد الملك ويُقَلِّدْن زمام الرعية ، فما كان ذلك اكباراً للمرأة ولا تنويهاً بشأنها وانما كان استضعافاً لنزوات النفوس وانغلاباً لحكم الهوى

الصدمة الأولى

طلاق المكرَه

وكان على المرأة أن تستقبل الصدمة بعد الصدمة وتستعد للّطمة بعد اللطمة فى ظل هذا العهد، وكان أول ما ابتدعوه لها من العنَت والمكروه يمين البيعة الذى يفرضون فيه على الرجل والسيفُ مُصْلَت على عنقه أن يحلف بطلاق امرأته على أن يبقى على بيعتهم ولا يحيد عن دولتهم ولا يحول عن نصرتهم ولا يشايع أحداً سواهم

والذين يقسمون هذه اليمين هم ذوو الرأى والجاه من الساسة الكفاة والقادة الحُماة والأئمة الهداة ، وقد يكون الرجل منصرفاً بقلبه عنهم ميالاً بوده الى سواهم ، فما عسى أن تكون امرأته ؟ أيفرق بينهما طواعية لارادة الحكم القاهر وخضوعاً للبيعة المقهورة ؟ وكيف تخضع تلك الشركة التى أحكم الله عقدتها وأوثق آصرتها لريح السياسة ونوازع الأهواء ؟ وهل يُقضى على امرأة آمنة فى سربها وادعة فى بيتها أمينة لزوجها ساهرة على أبنائها أن تقصَى عن كل ذلك فى غير ذنب ولا جريرة ؟ ! ذلك ما كان يراه خلفاء العراق وفقهاء العراق ؛ ولكن صوتاً دوّى من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتظم دويّه الشرق والغرب « بأن طلاق المكرَه باطل ويمينه لاغيـة » ومصدر ذلك الصوت أمام المسلمين وحجة الاسلام مالك بن أنس ، صَدَع به بين سطوة السيف وصولة السيف ، ولم يخش فى الحقّ إلاً ولا ذمة ولم يرع فى الله لومة لائم ، ودعم هذا الرأى الصارخ بآراء أئمة المسلمين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس وابن الزبير ومن اليهم مِن أشياخ الصحابة وأعلام الأسلام ، ولقد راع الخليفة الجبارَ أبا جعفر المنصور موقف الامام الأعظم مالك بن أنس فأمر بأن يضرب بالسياط عارى الجسد فشُدت يده وضرب على جسده وعليها بالسِياط حتى خُلعت كتفه فما نبا له عزم ولا وهن له رأى ولا حُلت له عقدة ولا زاغت منه عقيدة ، بل خرج من المِحنة أثبت جَناناً وأمضى لساناً وأشد إيماناً وأقوى برهاناً

التجنى على المرأة العربية

قيل إن عبد الملك بن مروان خطب إلى عقِيل بن عُلَّفة المرى إحدى بناته لأحد بنيه فقال عقيل ، أقبَلُ يا أمير المؤمنين على أن تُجنبنى هُجَناء ولدك . فذلك

أعرابى لا شأن له أكثر مما لغيره من سراة أهل البادية وهو مع ذلك لا يعد الهجناء من أبناء الخليفة أكفاء لبناته ، لأن المرأة كانت فى هذا العهد الأموى كما كانت فى العهد الجاهلى أدق مشاعر العزة والكرامة من نفس الرجل ، أما الآن فى هذا العهد العباسى فقد أخذ الرجل العربى يتجنى على المرأة العربية لأنه رأى من غيرها ما بهر لُبَّه وسحر عينيه ، ولأن حميته وعصبيته تَرَدَّتا تحت أثقال شهوته ، ومن ثَمَّ أخذ يُعرض بها ويوازن بينها وبين غيرها ، وذاع فى هذا العهد قولهم : مَن أراد قلة المئونة وخفة النفقة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر ، واشتهر قول من يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر . وأول من جهر بهذا الصوت فى المفاضلة الشاعر المبيح بشار بن برد ، ومن قوله فى وصف قينة :

وأصفر مثل الزعفران شربته ... على صوت صفراء الترائب رودِ
كأن أميراً جالساً فى ثيابها ... تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثَلَّةٍ ... سواماً ولم ترفع حِدَاج قَعود[1]
تميت به ألبابنا وقلوبنا ... مراراً وتحييهن بعد هجود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى ... صياح جنود . وجِّهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله ... كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا ... شهود وما ألبابنا بشهود

ومن قوله :

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش ... ببؤس ولم تركب مطية راع
إذا قُلدت أطرافُها العود زلزلت ... قلوباً دعاها للوساوس داع

وعلى أثر هذا الشاعر درج الشعراء من الغض من شأن المرأة العربية والزراية

(١) الثلة جماعة الغنم والسوام الابل الراعية والحداج المخفة فوق البعير والقعود من الابل ما يقتعده الراعى فى كل حاجة

بها والتهوين من أمرها . وإن يكن ذلك عجيباً فأعجب منـه أن تعتب المرأة على زوجها شغفه باحدى القيان وانصرافه عنها فيجيبها فى غير خجل ولا استحياء بمثل ما أجاب به محمد بن بشير الناشىء زوجته ، ثم يذيع هذا الجواب فى الناس فيُتغنى به فى بغداد وغير بغداد ، وذلك قوله :

لا تذكرى لوعة إثرى ولا جزعا ... ولا تقاسين بعدى الهم والجزعا
بل ائتسِى تجدى إن ائتسَيْتِ أُسًى ... بمثل ما قد فُجعتِ اليوم قد فُجعا
ما تصنعين بعين عنك قد طمحَتْ ... إلى سواك وقلب عنك قد نَزَعا
إن قُلْتِ قد كنتُ فى خفض وتكرمة ... فقد صدقت ولكن ذاك قد نُزِعا
وأى شىء من الدنيا سمعت به ... إلا إذا صار فى غاياته انقطعا
ومن يطيق خليعاً عنـد صبوته ... أم من يقوم لمستور إذا خَلعا

فهذا الشاعر يصارح امرأته الحرة بانصرافه عنها إلى غيرها من القيان و بأخذها بالتأسى بما أصيب به غيرها من جفوة وهجران ، وذلة وهوان، ثم يلقنها من الحقائق أن المستور إذا خرج إلى الفجور سار طلق العنان لا ترده قوة ولا يثنيه بيان . وفى ذلك كله ما يكشف لك عن صورة هذا العصر ويمثله أوضح تمثيل

الاغراء بالفساد

وكان كل ما حول المرأة يدفع الى الاثم ويغرى بالفساد ، فقد أصبحت وإذا هى فى ميدان فسيح تغمره اللذات وتدفعه المحرجات ، فمن يمينها الرجال يستحدثون كل يوم أسلوباً من اللهو ، ويستجدون ضروباً من الشهوات ، لا يتورعون لمُندِية ولا يسكنون إلى روية ، ولا ينزعون عن حمية ، بل ساروا خفافاً تدفعهم المآرب والأوطار، وتحدوهم الكؤوس والأوتار، وعن يسارها الجوارى يجررن أذيال اللهو

ويجرين فى مستبق الفساد ويتصدين للرجال بما يستخف ألبابهم من خائنة الأعين وما تخفى الصدور

وأنشأ الشعراء وهم ألسنة القوم وعنوان أدبهم يُغْرُون الرجال بالحرائر ويضرّونهم عليهن ويُشَككونهم فيما عسى أن يبدينه من عفة وما يتجملن به من إباء ، وكان إمام أولئك الغواة بشار ابن برد ، وهو أول من اتهم الحرة فى صيانتها وأمانتها وأطمع الرجال فى اسلاس قيادها بعد إفراط عنادها ، وذلك حيث يقول :

لا يؤيسنّك من مخدّرة   قول تُغَلِّظَهُ وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة   والشئ يسهل بعدما جمحا

ثم استن فى غباره أبو نواس الحسن بن هانئ فأتى ببِدع من القول فى قوله :

كان الشباب مطية الجهل   ومُحَسِّن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا   حتى أزور حليلة البعل

فانظر الى أى حد مَرَنت الألسنة واطمأنت الأسماع الى مقال السوء واشاعة الفاحشة بين الناس ! فاذا تأملت ذلك فأشفق على قلبك أن يذوب أسى وأبْقِ على نفسك أن تذهب حسرات ! يا ويح هؤلاء الناس ! أفى دولة اسلامية تُظِلّهَا خلافة اسلامية يقال ذلك القول وليس فى الناس راد ولا دافع ! ! أبلغ من فساد المروءة ورِقّة الدين أن يتحدث شاعر الخليفة بأنه كان يدرج فى ظلمة الليل إلى حرم البيوت فيسلب ذات الزوج عفتها وفى المسلمين امام يقيم الحدود ويمنع الحرمات ! ! فأين هذا من العهد الجاهلى الذى يقول قائله

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

أو العهد الاسلامى الذى يقول قائله

أعمى اذا ما جارتى خرجت   حتى يوارى جارتى الخذر
ما ضر جارى اذ يجاورنى   ألاَّ يكون لبيته ستر

أو العهد الأموى الذى يقول قائله

قالت — وقلت تحرجى وصِلِي ... حبل امرئ بوصالكم صبٍّ —
صاحب إذاً بعلى ! فقلت لها ... الغدر شيء ليس من ضربى
ثنتان لا أدنو لوصلهما ... عرس الخليل وجارة الجَنب
أما الخليل فلست غادِرَهُ ... والجار أوصانى به ربى

وراحَ هؤلاء الخلعاء وأشباههم ينشرون من الأحاديث المبذولة ما يُرَوض المرأة الآبيَة ويستنزل النفوس الرفيعة . وقد حدثوا أن مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان فقال لهما فيم أنتما ؟ قالا فى قذف المحْصَنات ! قال أو بقيت فى الأرض محصَنة فتقذفانها ؟ ! فهل هناك إغراء بالحرائر أشد وأشنع من اتهامهن جميعاً فى أعراضهن .

ومن الشُنع المهلكة للفضيلة المغرية بالرذيلة تلك المقطعات التى تحدث فيها الشعراء بأحاديث التمرد على العفاف وأرسلوها مؤنثة اللفظ سهلة المأخذ فتلقفها المغنون والمغنيات وأنشئوا يرددونها فى المجامع والأندية وبين الستور والخدور ومما هو شبيه بذلك قول بشار

عجبت فطمة من نعتى لها ... هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت ... بين غصن وقضيب وقمر
درة بحرية مكنونة ... مازها التاجر من بين الدرر
أرخت الستر وقالت ويلتا ... مِن وَلوع الكفّ رَكّاب الخطر
أُمّتَا بَدّد هذا لُعَبى

. . . .

أقبلت مغضبَة تضربها ... واعتراها كجنون مستعر
أيها النوام هبوا ويحكم ... وسلونى اليوم ما طعم السهر

ولم يكن الرجال وحدهم هم المغرين للنساء باقتحام الآثام بل إن الجوارى قلن فى ذلك أشد مما قال الرجال وأغرين النساء بأكثر مما أغزوا ! ولولا أن ذلك كله مما لا يستجيز القلم ذكره لأثبتنا منه ما يدل على باقيه

حلول الـكارثة

كذلك توالت النُّذُر المؤذِنة بانصباب الخطْب وهبوب العاصفة ، وأى نفس تقدحها تلك المحن ولا تهن ؟ وأى قلب تبلوه تلك الفتن ولا يميل ؟ وأى عزم ترضخه تلك المآثم ولا يُفَلّ ؟ وأى ضمير ترهقه تلك المحارم ولا يأثم ؟ وأى عين تأخذها تلك المخايل ولا تطمح ؟ وأى قدم تدفعها تلك المزالق ولا تزل ؟ وكذلك حقت كلمة الله على الأمة المُترَفة أن يندفع نساؤها فى تيار الزمن ، وكان سبيلهن أن تبرجن كما تبرج الاماء ، وتصدين للرجال كما تصدين ، وبذلن من الزمام كما بذلن إلّا قليلاً منهن أمعنّ فى الفرار ، فلزمن المنازل ، واتخذن المسابح ، وانقطعن الى المحاريب. وكذلك كانت بلاد العراق مسارح للتبرج والتهتك ومعابد للتزهد والتنسك. وفى كلا الموطنين فقدت المرأة أنوثتها التى تنهج لها سبيل الزوجية السعيدة والأمومة الرشيدة ، وكان للبيتين الكبيرين فى هذا العهد — بيت العباسيين وبين العلويين — أثر واضح فى توجيه المرأة الى ناحية من تينك الناحيتين

بيت بنى العباس

وكان المهدى أول ناشىء فى مهاد الدعة وبين ظلال النعيم من بنى العباس ، وقد ترك له أبوه من ذخر المال ما لا يُنْفِدُه سرف ولا يفنيه تلف ، فاتسع له بذلك مجال اللهو والترف . ولقد علمت ما حدثتك من نفاذ جواريه إلى ذات نفسه

وعلى شئون ملكه ، وعلمت ما كان من صرف وجوه الرعية الى دار الخيزران حتى فشت فيها القالة وأرجفت بها الألسنة وساء عنها الحديث

ولم يكن المهدى فى غيرة أبيه بل كانت الغيرة أضعف نواحيه . سمع أبا العتاهية ينشده مدحه فيمن أنشده من الشعراء فكان أول قصيدته غزلاً واضحاً وتشبيباً صريحاً بفتاة من جوارى قصر الخلافة ، وذلك ما يقول

ألا ما لسيدتى ما لها أدَلاًّ فأحمِلَ إدلالها
والا ففيم تجنت وما جنيت سقى الله أطلالها
أَلاَ إِن جارية للاما م قد أُسكِنَ الحسنُ سربالها
مشت بين حور قصار الخُطَا تجاذب فى المشىِ أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب فى اللوم عذالها

فلم يُرَ الغضب على وجهه ! بل لقد اختص هذا الشاعر دون غيره من سائر الشعراء بالجزيل من جائزته ، وأشد من ذلك أنه حاول أن يستوهب ابنته عُلَيَّة تلك الجارية ليمنحها الشاعر وكاد يتم ذلك لولا أن توسلت الفتاة بألا يجعلها منحة لهذا الشاعر الدميم المنظر الدانى من الموت ، وشفعت فيها ابنته فبدله الخليفة منها مالاً كثيراً

ولعلك تقول هى جارية تشرى وتمنح فليس من شأن المهدى أن يستشعر الحفيظة لها والغيرة عليها ، قلت فهلا حق له الغضب من نسبتها اليه وقرن اسمها باسمه ! وأى الخلفاء كان يستمع قول أبى العتاهية : ألا إن ظبياً للخليفة صادنى ثم يتركه وفيه عين تطرِف

ودعنا من الجارية : هذه ابنته « البانوقة » أعز الناس عليه وأحبهم اليه وأوحد أهل دهرها أنَقاً وجمالاً ، فهل يجول فى خيال أو يخطر ببال أن يُلبِسهاَ أبوها ثياب

الجند ويقدمها بين يدى موكبه فى طريقه إلى الحج ، وهى فى نضرة العمر وربيع الشباب ! أو كما يقول الطبرى «كان المهدى فى موكبه يسير وابنته البانوقة تسير بين يديه فى هيئة الفتيان عليها قَباء أسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف وقد رفع ثدياها القباء لنهودهما . . . !

فهل رأيت كيف أبرز المهدى ربيبة الخلافة وسليلة العباس وعقيلة بنى هاشم ونصبها للعيون فى زى يجتذب الأبصار ويستقيد النظار ؟!

ولم تطل حياة البانوقة بل هصرها الموت فى مقتبَل الشباب فاخلت الطريق لأختيها عُلَيّة والعباسة

فأما علية فكانت شاعرة مغنية جميلة متجملة ، روت لها كتب الأدب كثيراً من الشعر الغنائى ، وفى كثير مما رووا تشبيب بفتيين من مماليك الرشيد يُدعى أحدهما طَلاًّ والآخر رشا ، وربما زجرها الرشيد فصحفت اسميهما وجعلت أولهما ظِلاًّ والثانى زينب وهما تصحيف طل ورشا

ومن قولها فى طل

أيا سروة البستان طال تشوقى — فهل لى إلى « ظِل » إليك سبيل
متى يلتقى من ليس يُقْضَى خروجه — وليس لمن يَهْوى اليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا — فيلقى اغتباطاً خلةٌ وخليل

ومن قوله فيه كذلك

سلم على ذاك الغزال — الأهيف الحُلو الدلال
سلم عليــــه وقل له — يا غل ألباب الرجال
خليت جسمى ضاحكا — وسكنت فى «ظل» الحجال
وبلغتَ منِّىَ غاية — لم أدر فيها ما احتيال

ومن قولها فى رشا

وجد الفؤاد «بزينبا» وجداً شديداً متعبا
أصبحت من كلفى بها أدعى سقيما منصبا
ولقد كنيت عن اسمها عمداً لكيلا تغضبا
وجعلت زينب سترة وكتمت أمراً معجبا
قالت وقد عز الوصا ل ولم أجد لى مذهبا
والله لا تلث المودّ ةَ أو تنال الكوكبا

ومن قولها فيه وقد حلف ألا يشرب النبيذ

قد ثبت الخاتم فى خنصرى اذ جاءنى منـك تجنيكِ
حرّمتُ شرب الراح إذ عفتها فلست فى شىء أعاصيكِ
فلو تطوعت لعوضتنى منه رضاب الريق من فيكِ
فيالها عندى من نعمة لست بها ما عشت أجزيكِ
يا زينباً قد أرّقتْ مقلتى امتعنى الله بحُبّيـكِ

وكان الرشيد يستمتع غناءها غير متحرج ، وذكر صاحب الأغانى أنها تغنت وأخوها يزمُر لها بقولها

تحبّب فان الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصّر فان حُدّثتَ أن أخا هوى نجا سالما فارج النجاة من الحب
اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

وكان فى جبين عُلية سمة غير مستحسنة فاخترعت له العصابة وهى شُقَّة من الحرير محلاة بصنوف الجوهر فسترت عيبها وزادتها جمالاً

وأما العباسة فقد قال المؤرخون فى أمر صلتها بجعفر بن يحيي البرمكى ما قالوا ،

وذكروا أن هذه الصلة هي التي حملت الرشيد على قتله جعفراً وإيقاعه بالبرامكة ؛

كذلك كان الناس يعرفون قبل ابن خلدون ، فاما أنشأ هو مقدمة تاريخه جعل هذا القول من أوهام المؤرخين وقال في سبيل ذلك : « وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ؛ العباسة بنت محمد المهدى ابن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السَّجَّاد بن على أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة ، أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد السرف ومراتع الفواحش ، فأين يُطلَب الصون والعفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيي وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى الأعاجم بمِلكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش ، وغايته أن جذبت دولتهم بِضَبْعه وضَبْع أبيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الأشراف ، وكيف يسوغ للرشيد أن يصهر الى موالى العجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولجّ في تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ وانما نكبَ البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه على سلطانه . . . »

ذلك قول ابن خلدون ؛ وما كان أولانا بما رآه وأذهبنا فيما ذهب اليه لولا أنه ناقش المؤرخين بمشاعره وببعض عقله ، وراح يعتمد على فخامة اللفظ ورنة الايقاع

وكل ذلك ليس خليقاً بأن يمحو خبراً ذاع ويقطع حديثاً نمى ، وكان أولى بابن خلدون حين ذكر للعباسة شرف المنصب وعلو النسب أن ينظر نظرة الى الأم فهى وحدها مرجع ما عليه البنت من علو أو هوان، بل مرجع ما عليه الولد من بعد همة أو فتور عزيمة ، تلك الأم التى نزع الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم اليها بقوله « أنا ابن العواتك من سُلَيم » . وكل ما يتصل به الأبناء من عظمة البيت وشرف الأسرة ونبل العشيرة إنما يتضاءل فيما يرتضعونه من أمهاتهم من لؤم وخمول . ومَن أم العباسة ؟ أليست مغنية من القيان اشتراها المهدى وكان من أمرها أن أصبحت أم ابنته ؟ أفى قدرة هذه أن تنشىء فتاة تحفظ ما لبيتها العظيم من سمو وجلال !

وان النفس لا تطمئن لما ذكر بن خلدون عن نكبة البرامكة ، فان المُثْلة الشنعاء التى مثلها الرشيد بجثمان جعفر من تمزيقه ثلاث فلذات وصلب كل واحدة على باب من أبواب بغداد بعد ما كان من فرط حبه له وتقريبه منه تقريباً لم يكن بين أخوين أليفين — كل ذلك لا يكون إلاّ حين تتقد الغيرة وتهتاج الحفيظة ويصاب العرض ، وما أظن ما قال القائلون من احتجان الأموال وممالأة بنى على بن أبى طالب إلاّ تمويهاً للأمر وابلاغاً للعذر . ولو كان ذلك حقاً لقتل البرامكة على سواء ولِم يختص واحداً بالقتل ويترك الباقين رهائن السجن ، بل لكان أولى بالقتل يحيى أبو جعفر لأنه هو الذى استنّ لبنيه سياسة الرفق والمودة للعلويين

وكان بيت المأمون يقوم على العلم والحكمة ، وعلى المرح والدعابة كذلك ، وكانت ابنته خديجة تجدّ فى أثر عمة أبيها علية من إرسال الشعر فى التشبيب وابتكار الغناء والتلحين، ومن قولها فى خادم من خدم أبيها

بالله قولين لمن ذا الرشا   المثقل الردف الهضيم الحشا

أظرف ما كان اذا ما صحا وأملح الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له أرسل فيه طائراً مُرْعَشا
يا ليتنى كنت حماماً له أو باشقا يفعل بى ما يشا
لو لبس القوهىّ من رقة أوجعه القوهىّ أو خدّشا

وحسبنا أن نقف بالقلم عند هذا الحد ونكتفى منه بأن نقول إن نساء بيت بنى العباس قد أخذن مآخذ الرجال من السَّرَف والاندفاع ، وما نريد أن نقول إنهن تجاوزن المرح والدعابة الى ما وراءهما من العيث والفساد ، واذا زلت هنالك قدم أو طمحت عين أو لفظ لسان فان ذلك لا يصدع البيت ولا يثلم الأسرة الا أن يقال أن ترف الحضارة ورونق النعيم قد رفعا عن تلك البيئة كلفة الدين وخلعا عنها عذار الوقار

بيت العــــلويين

أما نساء هــذا البيت فقد عكفن على التبتل وأَنِسْن بالوحشة وانقطعن عن الناس ؛ وما ظنك بامرأة لا تنتقل من فاجعة الا الى فاجعة، ولا تصير من نازلة الا الى نازلة ، قد رضَّ الحديد عظام أهلها ، ونهلت السيوف من دمائهم ، وراح وحش الفلا بأشلائهم ، وكأن بينهم وبين كل دولة ثأراً لا تسكن نأمته ولا تروى غلته حتى لقد استجاز قُسَماؤهم وبنو عمهم أن يقودوا الطفل من ملعبه الى مذبحه ، واليك فاسمع احدى حوادثهم

قال الطبرى : ذكر أبو يعقوب بن سليمان قال : حدثتنى حميدة العطارة — عطارة أبى جعفر — قالت : لما عزم أبو جعفر المنصور على الحج دعا رَيْطة بنت أبى العباس امرأة المهدى — وكان المهدى بالرى قبل شخوص أبى جعفر — فأوصاها بما أراد وعهد اليها ودفع اليها مفاتيح الخزائن وتقدم اليها وأحلفها ووكد

الايمان ألاَّ تفتح بعض تلك الخزائن ولا تُطْلع عليها أحداً إلا المهدى، ولا تطَّلع هى الا أن يصح عندها موته، فاذا صح ذلك اجتمعت هى والمهدى وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة، فلما قدم المهدى من الرى الى مدينة السلام دفعت اليه المفاتيح وأخبرته عن المنصور أنه تقدم اليها فيه ألاَّ يفتحه ولا يطلع عليها أحداً حتى يصح عندها موته، فلما انتهى الى المهدى موت المنصور وولى الخلافة فتح الباب ومعه ريطة فاذا أَزَجٌ كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم واذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لِما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة ودفنوا فيها

تلك فَعْلَةَ من فَعَلات أبى جعفر بأبناء عمه، وهى مَثَل واحد من كثير لاحد له وما كان الرشيد بأنعم يداً، ولا أرقّ كبداً من جده المنصور، بل كانت سيوفه الطائشة كحمم النار ترتمى يميناً وشمالاً على رؤوس الأبرياء من بنى عمه، حتى لقد كانت سياسته فيهم سياسة إبادة وإفناء. فأين تقر العيون الباكية، وكيف تسر القلوب الدامية، وهل يطمئن بالحياة من تنذره كل لحظة بحيف نازل أو كيد محيق لذلك لم يجد نساء هذا البيت فَرْجة من الهم ولا متسعاً للسرور. ولذلك ائتنسن بالوحشة، واسترحن إلى الوحدة، وانعطفن إلى الدين، حتى لقد نشأ جوارى ذلك البيت على غير ما ينشأ عليه جوارى ذلك العصر. فما كانت الجارية تدخل فى رقهم حتى تتلقاها إحدى نسائهم فترويها الحديث وتعلمها الفرائض

وقد حدثوا أن فتاة رومية من بيت القياصرة، وفدت على أبى محمد الحسن العسكرى، فلما رآها راغبة فى مصاهرة بيت النبوة، دعا أخته حكيمة فقال: خذيها إلى منزلك فعلميها الفرائض والسنن

ومما أذكر فى وصف هذين البيتين وعقد الموازنة بينهما قول أبى فراس الحمدانى

من قصيدة يرد بها على ابن سكرة الهاشمى العباسى . وكان ابن سكرة قد قال قصيدة يمدح فيها بنى العباس ويعقد فيها لواء الفخر عليهم :

خلوا الفخار لعلاَّمِين إن سئلوا ... عند السؤال وعمّالين إن علموا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً ... ومن بيوتكم الأوتار والنَّغَم
إذا تلوا آية غنى إمامكمُ ... « قف بالديار التى لم يعفها القدم »
منكم عُلَيّة أم منهم وهل لكمُ ... شيخ المغنين ابرهيم أم لهمُ
ما فى بيوتهم للخمر معتصر ... ولا بيوتهمُ للشر معتصم

اتصال البيتين

وأقام هذا البيت أبْعَدَ ما يكون عن بيت بنى العباس حتى لا يجرؤ أحد من المتصلين بالعباسيين أن يَصهرَ إلى علوى خوفاً من الخليفة أن يعرضه على السيف وبقى العلويون فى منعزَل سحيق من الناس ، حتى إذا استُخلف المأمون أراد أن يصل الحبل ، ويرّأَب الصدع ، ويحسم الشقاق . فدعا بعلى بن موسى الرضا عميد هذا البيت وزعيمه والامام المرتضى من آل البيت ، فقلده ولاية عهد الخلافة ، وزوجه ابنته أم حبيب ، وزوج ابنه محمداً ابنته الثانية أم الفضل ، وضرب النقود باسم على ، وقرن اسمه باسمه على المنابر ، وخلع الشِّعار الأسود الذى اتخذه العباسيون عنوان دولتهم وبدل منه الشِّعار الأخضر الذى اختاره العلويون شارة إمامتهم

وكان من أثر تلك الخطة التى اختطها المأمون أن دوت صيحة بنى العباس بالثورة على الخليفة القائم . واحتشدت جموعهم لقتاله ، وخلعوا عن أعناقهم بيعته ، وولوا عمه ابرهيم بديلاً منه . وقد قابل المأمون كل ذلك بجيش من مضائه ودهائه مزج فيه الشدة باللين ، والوعد بالوعيد . ثم ما زال بأهله حتى أخمد جمرتهم ، وأطفأ ثورتهم ، وإن كانت صدورهم لم تزل محنية على الحقد والحفيظة . وإذا كانت الحالة

السياسية قد صفت مظاهرها ، فإن الحياة الزوجية فى الأسرة المؤتلفة كان يشوبها الكدر ويفسدها الشقاق ، وذلك شأن الزواج الذى لا تأتلف فيه نشأة الزوجين وأسلوب تربيتهما . وكان الخلاف بين محمد وزوجه أشد مما كان بين أبيه وزوجه ، تريد المرأة أن يبسط لها زوجها بساط النعيم ، ويفسح مجال السرور ، ويجلو لعينيها بهجة الملك ، ويأبى الرجل إلا التضييق عليها فى ذلك كله ، وكلاهما فى الطرف القصى من صاحبه . وكثيراً ما كانت تشكوه إلى أبيها المأمون فيقول لها : يا بنية أطيعيه واحتمليه ، فانه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم

القطيعـــة

على أن الحبل ما لبث أن قطع من أحد طرفيه ، فإن علياً مات بعد قليل من زواجه على أثر أكلة عنب قيل إنه مسموم ، وقيل إن امرأته هى التى سمته ، وقيل إن المأمون هو الذى أوحى ذلك الى ابنته ليعود إليه ود بنى أبيه . ثم قطع الطرف الثانى فى عهد المعتصم حين مات محمد بن على ، ويقول الشيعة إن امرأته كذلك هى التى قتلته لتفصم عقدة الحياة بينها وبينه ، وبذلك عاد البيتان الى قديم ما كانا عليه من فرقة وشتات . وكان حُلماً فانقضى ، وكان عقداً فانتثر

فان الجرح ينفر بعد حين   إذا كان البناء على فساد

الاقتـــداء

وكان لا بد للمرأة أن تأتسى بأحد هذين البيتين : فأما بيت بنى العباس فقد دخل فى زمرته جمهور النساء وأخصُّهن ذوات الجاه والثراء لأن كل ما فى الحياة من لهو واندفاع ينزع بهن الى تلك الناحية ، ومن شأن المقلد أن يندفع فى تقليده إلى أبعد ممن يحكيه ، وكذلك خرج النساء الى مستبَق المرح ومغتنَم السرور ، وإذا استثنيت

ما يسوقه ابن خلدون من جدل وتأويل فان المؤرخين مجمعون على أن النساء قطعن الحوائل وكسرن القيود ، ولم يكن سرا حديث ملاعب بغداد ومغانيها ودورها وقصورها وما أقيم فيها من عزف وقصف وما ساد عليها من لهو ولعب ، فقد تواصفه شعراء هذا العصر ومؤلفوه ، ولولا عفة القلم لنقلنا الكثير الموفور مما وصفه أبو نواس فى مقدمة ديوانه وما ساقه أصحاب الأغانى وكتاب بغداد والمنظوم والمنثور والعقد الفريد وصاحب بلاغات النساء فى باب المجون وأشباههم من المؤرخين والأدباء وفى كلها من حديث المراح والجماح ما لا نراه إلا قطعاً للصلة بين نساء هذا العصر ونساء العصر القديم ، وهل كان يُقْدَرُ للمرأة غير ذلك المقدور وقد تقاسمتها الفتن وتنازعتها الأهواء . ومن البدائه الظاهرة فى تاريخ العراق أن المرأة فى هذا العصر شربت النبيذ . ومن حديث الطبرى أن نساء أقررن بالخمر بين يدى المهدى ومن رواية الأصمعى أن أعرابية نزلت بغداد فسقوها النبيذ ، فلما أخذتها النشوة قالت : أيشرب نساؤكم هذا ؟ قالوا نعم ، فقالت زنين ورب الكعبة

ومما يزيح لنا النقاب عن مبلغ ما أصاب الأخلاق من وهن وانتكاث قول علىّ ابن هشام وهو ممن تصلهم ببيت الخلافة صلة الدم وآصرة المصاهرة : عشقت ألف امرأة ثم انتهيت على ألاَّ أثق بامرأة . أفرأيت كيف لانت مقادة النساء وهانت كرامتهن وأُذيل فضلُ ما لهن من إباء وحياء حتى استعصى على الخبير بهن أن يثق بواحدة منهن . كذلك أقام الكسائى إمام اللغة والأدب دهرَه غير متزوج لأنه لا يثق بامرأة ، وكثير من علماء هذا العصر درجوا ذلك المدرج فلم يتزوجوا

النُّسَّاك

وكان من شأن تلك الحال أن تدفع كثيراً من المستورين والمستورات إلى التحرج منها والانحياز بأنفسهم عن مجالها والابتعاد عن مخالطة من يتصلون بها ، وركبوا

فى ذلك الحرج مركباً خشناً لاسواء فيه ولاصفاء ، فاستوحشوا من الدنيا وانقطعوا عن الناس وتجافت جنوبهم عن المضاجع وتناءت قلوبهم عن المطامع ، وهذا الفريق من الناس هو الذى اتخذ أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم غاية مرومة وسنّة مأمومة ، ثم ما لبثوا أن تجاوزوا بالنسك أبعد حدوده فحرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله فلبسوا الخَشِن الشائك وأكلوا اليابس القَفار وأنسوا بالظلمة الحالكة واستوطئوا الصلب العسير واندفعوا فى سبيل ذلك كما يندفع المُهر الأرَنّ فاعتسفوا الطريق إلى غايته واقتحموا الصعاب إلى مداها

وكان الزاهدات من النساء أشد اندفاعاً فى الزهد وانقطاعاً إلى العبادة وامتناعاً عن طيبات الحياة من زهاد الرجال ، فلا تراهن إلاصائمات قائمات، باكيات والهيات وخليق باندفاع المتبرجات المتبذلات أن يقابله اندفاع المتنسكات المتبتلات ، فإن حسب المرأة أن تشعر بالموجدة على شىء حتى تفر من كل ما يلابسه أو يحيط به لذلك كان العراق أحفل بلاد الله بالخيّرات الصالحات اللواتى نهجن طريق الزهد عن فرط علم ورسوخ عقيدة لا عن حماقة وجهالة كما تجد فى كثير ممن عرفن بالنسك والتصوف من أشتات البلاد

ورأس هؤلاء الناسكات رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية ، وكانتَ مضرب المثل فى تدله القلب واحتراق الكبد حباً لله وايثاراً لرضاه ، وكانت على تواصل صيامها وقيامها وتتابع زفراتها وتدفق عبراتها تستقل كل ذلك فى جنب الله . قال يوماً شيخ الزُّهاد سفيان الثورى وهو عندها : واحَزَناه ! فقالت : لا تكذب ! بل قل: وا قلة حزناه ، ولو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس

ومن حديث خادمتها عبدة بنت أبى شوال — وكانت أشبه الناس بها فى نسكها وعبادتها — : كانت رابعة تصلى الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى

صلاتها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يا نفس كم تنامين ؟ ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور. قالت عبدة : وكان هذا دأبها أمد دهرها حتى ماتت ، ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت يا عبدة : لا تؤذنى بموتى أحداً ، وكفنينى فى جبتى هذه — وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون

ومن قولها : ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً . ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم

ومما أثر عنها من الشعر قولها فى ذات الله تعالت ذاته :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى　　وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ　　وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت وفاتها رضوان الله عليها سنة خمس وثمانين ومائة

عبدة البصرية

وهى امرأة عكفت على العبادة وأفرطت فى السهر وأسرفت فى البكاء حتى كف بصرها .

سمعَتْ قائلاً يقول : ما أشد العمى على من كان بصيراً ! فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب عن الله أشد من عمى العين ، ووددت أن الله وهب لى كنه محبته وأنه لم يبق منى جارحة إلاّ أخذها

وقدم ابن أَخ لها من فراق طويل فبُشِّرت به فبكت ، فقيل لها : ما هذا واليوم يوم سرور ! فازدادت بكاء ، ثم قالت : والله ما أجد للسرور فى قلبى مسكناً مع ذكر الآخرة ، ولقد أذكرنى يوم قدومه يومَ القدوم على الله ، فَمِن بين مسرور ومثبور ، ثم أغمى عليها وسقطت

فاطمة بنت عباس، المفتية ، المدرسة ، الفقيهة ، العابدة ، العالمة ، الصوفية ، المجاهدة

وكل هذه ألقاب خلعها عليها أهل دهرها ، وكلها صفات وصلت بها منتهى حدودها . كانت تصعد المنبر وتعظ النساء . وانتفع بتربيتها والتخرج عليها خلق كثير . وكانت عالمة موفورة العلم فى الفقه والأصول ، وعلى سُنّتها سارت ابنتها زينب فكانت تعظ النساء وتخطبهن فى حياة أمها وبعد موتها

نخرية بنت عثمان البصرية

كانت من أسرة عريضة الجاه موفورة الغنى ، ولكن ذلك كله لم يطب لها نخرجت عنه وتزهدت وتنسكت وهجرت الراحة والمنام إلى الصلاة والقيام وقنعت من العيش برغيف وقدح ماء ، فذلك قوتها كل يوم

وكانت أشبه الناس برابعة فى الوحشة من الدنيا والتدلّه فى ذات الله . هاجرت إلى بيت المقدس وأقامت أربعين عاماً تقف الليل كله بباب الحرم تصلى حتى يفتح الباب فتكون أول داخل وآخر خارج

مُعاذة بنت عبد الله العدوية البصرية

روى عنها قتادة والجرمى وأيوب وغيرهم . وكانت إذا شملها النهار قالت لعلّى أموت اليوم فلا تنام ، وإذا جنّها الليل قالت لعلى أموت الليلة فلا تنام . وكانت إذا اشتد البرد لبست الرّقاق من الثياب ليمنعها البرد طيب المنام فلا تنام .

ومن قولها : عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظلمة القبور. وكانت تصلى فى اليوم والليلة ستمائة ركعة . ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين عاماً

واكثر ما كان الزهد والتنسك فى البصرة، وتلك كانت شهرتها من قديم عهدها

ومن حديث هذا التبذل والتبتل تعلم أن المرأة تمردت على الحياة النِّسوية الكاملة ، فليس فى هؤلاء ولا أولئك مثل واضح للمرأة التي جعلها الله مبعث الود والرحمة للزوج

ومغرس النبل والكمال للولد ، بل هى امرأة ثائرة على النظام نافرة من الجماعة ، وما لهذا خلق النساء

ومن العجيب أن المرأة المتنسكة انصرفت عن الزواج ! كأنها تعلم أن نسكها لا يتم إلا إذا انفردت عن سائر الناس !

ومما رواه صاحب (مصارع العشاق) من حديث فتاة من المتبتلات نظر اليها فتى من جيرتها فهام بها فأومرت فى الزواج منه فاعتذرت . أقول من هذا الحديث تعلم كيف يصرف هذا الصنف من النساء عنانه عن كل ما يتصل بالحياة

وحديث ذلك أن هذا الفتى رأى الفتاة فشغفته حباً فكتم أمرها حتى انحل جسمه وأشفى على الموت ، ثم كاشف بأمره امرأة من أهله فذهبت الى الفتاة — وكان حديث مرض الفتى قد انتهى اليها — وحدثتها ساعة . ثم قالت لها : يا بنية أبليت شبابك وأفنيت أيامك على هذه الحال التى أنت عليها ! قالت يا عمتاه أية حال سوء ترينى عليها ؟ ! قالت لا يا بنية ، ولكن مثلك يفرح فى الدنيا ويلذ فيها ببعض ما أحل الله عز وجل لك غير تاركة لطاعة ربك ولا مفارقة لخدمته ، فيجمع الله لك بذلك الدارين جميعاً ، فوالله ما حرم الله عز وجل على عباده ما أحل لهم من الطيبات . فقالت يا عمتاه ، أوهذه الدار دار بقاء لا انقطاع ولا فناء ، فتكون الجوارح قد وثقت بذلك ، فتجعل لله تعالى شطر همتها وللدنيا شطرها ، فتعد الجوارح اذا التعب راحة والكد سلامة ؟ أم هذه الدار دار فناء وتلك دار بقاء ومكافأة . والعمل على حسب ذلك ، قالت يا بنية لا ، ولكن الدنيا دار فناء وانقطاع وليست بباقية على أحد ولا دائمة له ، ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعات صدقةً منه على النفوس تنال فيها ما أحل لها مخافة الشدة عليها . فقالت الجارية : صدقت يا عمتاه ، ولكن لله عباد قد علموا وصح فى هممهم شىء من ذخر ذخروه عنده ، فجعلوا هذا الشكر

ذخيرة عنده ، اذ لم تكن الدنيا كاملة لهم ، ولاهم منتقصون شيئاً قدموه لأنفسهم ، وسكنت نفوسهم ورضيت منهم بالصبر على الطاعة لتنال جملة الكرامة. وان كلامك ليدلنى على أن تحته علة وهى التى حملتك على مناظرتك لى على مثل هذا ، وقد كنت أظن قبل اليوم فيك أنك تأمرين بالحرص على طاعة الله عز وجل والخدمة له والتقرب اليه بالأعمال الزكية التى تبلغ رضاه وترفع عنده ، فقد أصبحتِ متغيرة عن ذلك العهد الذى كنت أعهدك عليه ، فأخبرينى بما عندك وأوضحى لى ما بقى فى نفسك ، فان يكن لك جواب أعنتك ، وان يكن فيه حظ تابعتك ، وان يكن أمراً بعيداً عن الله تعالى وعظتك . قالت يا بنية ! فأنا مخبرتك به ، والذى منعنى من القائه عليك هيبتك ، فأما إذ بسطتنى وعامت أن عندى خبراً وأمرتنى بالقائه فان من قصة فلان كذا وكذا ؛ قالت قد ظننت ذلك ، فأبلغيه منى السلام وقولى : أى أخاه ، إنى والله قد وهبت نفسى لمليك يكافئ من أقرضه بالعطايا الجزيلة ، ويعين من انقطع اليه وخدمه بالهمم الرفيعة ، وليس الى الرجوع بعد الهبة سبيل ، فتوسل الى مولاك ومولاى بمحابِّهِ ، وأسرع اليه فى غفران ما قدمت يداك من عمل لم يهبه ولم يرضه ، فهو أول ما يجب عليك أن تسأله وأول ما يجب على أن أعظِك به ، فاذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات الصدور ، فانه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصياً وعن أمره مولياً ناسياً — أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها ، ويُلزم نفسه مسئلة الحوائج لعلها داعية له الى الفتنة إن لم يتداركه الله بكرمه ، فاستنقذ نفسك يا أخى من مهلكات الذنوب فان له فضلاً وسع كل شىء ، ولست مؤيستك من فضله إن رآك متبتلاً اليه ، ومما قدّمت يداك معتذراً أن يمن بى عليك ، فانه الملك الذى يجود على من ولّى عنه فكيف من أقبل اليه ، فلا يشك أنه اذا جاد على من تولى عنه يكون لمن أطاعه مكرماً واليه وقت

الندامة مسرعاً ، وما أبقيت لك حجة تحتج بها ، فليكن ما أخبرتك به نصب عينيك ، ولا ترادنى فى المسئلة فلا أجيبك ، والسلام .

فلما بلغته مقالتها زاد وجده بها حتى خولط عقله ومات بعلته .

وبعد ، فهذه صورة ما كان عليه نسوة هذا العصر من غلو فى كل شىء ، ولست أعنى بذلك أن نساء العراق لم يبق منهن إلاّ الجامحة فى أحد هذين الطريقين فما زال فيهن المستورات اللواتى سرن فى الطريق السوى الذى لا اعتساف فيه ولا انحراف ، ولكن هؤلاء لم يكن فى أسلوب حياتهم شىء يستحق التنويه به ولا مزية تستوجب الاشادة بها وهن مع ذلك قُلٌّ فى النساء

المرحلة الثانية

الكساد

الزواج قيد من قيود الاجتماع أو ثقة الله بين الرجال والنساء لتنكسر به حدة الشهوة الطائشة ، وترعوىَ به سورة النفوس المندفعة ، فاذا تم لها ذلك ، سمت الروح وصفت السريرة ، وغَلبت الفضيلة ، وسار الناس إلى الكمال فى نهج واضح وأمد قريب . لذلك لا تجد الأمة الغوية تنزع إلى الزواج ، لأنها تريد اثارة الشهوات لا اماتتها ، وايقاظ الفتن لا اخمادها ، وتضرية النفوس لا ترويضها ، فإذا نزع إليه منها نازع فبقدر ما يقضى نهمة جامحة ، أو يسد مطمعاً مؤتشباً ، ثم يتركها كما يُترك اللَّقَى المهمل ، أو يطويها كما يُطوى الثوب اللبيس . وذلك ما كان على أتم وجوهه فى حواضر العراق ، فقد كسد النساء حتى أصبحت المرأة تطلب بالدينار والدينارين فتساق ، وهى تعلم أنها ستسَلم حين اللقاء تسليم الوداع . ومما ينبئك عن هذا البوار ما حدث صاحب النجوم الزاهرة ، أن عالماً من علماء بغداد زُوّج من تسعمائة امرأة !

فهل إذا قيل لك إن فلاناً العالم ذبح فى حياته تسعمائة شاة أفلا يكون ذلك اسرافاً مبيناً . ذلك عالم ليس له إلا ما يقيم أوده مما يوظف لأمثاله من بيت مال المسلمين ، فكم من النساء يمسك الغنى إذا نزل تلك السوق الراكدة ومعه ماله وجاهه

وفى هذه السوق قُضى على المطلقات قضاء لامرد له ، فلا يطلب المطلقة طالب ولا تلمحها نفس راغب . وقد كان من سنة العرب حتى آخر العهد الأموى ، أن المرأة يخلفها بعد زوجها زوج ومن بعده أزواج ، فلا يتضع لها قدر ، ولا تطمئن لها عزة ، وربما كان آخر أزواجها أسني شرفاً وأدنى الى قلوب النساء من أولهم لأن المرأة انما تخطب لسناء شرفها ، وعلو بيتها ، ونبل خلالها ، وذلك ما لم ينقصه الطلاق شيئاً . أما الآن وقد شغل النـاس بلذاذات الشباب ، واستمرأوا مرعى الجوارى فأقل ما يطلب أبكار العرب بَلْهَ ثيبهن . والى تلك الحال أشار الجاحظ فى كتاب القيان اشارة الآسف المحزون ، وان من أوضح ما يكشف عن رأى الرجل فى المرأة ، ومنزلتها من نفسه ، وحالها فى بيته قول القائل :

اذهبي قد قضيت منك قضائى وإذا شئت أن تبينى فبينى

ولعل أبلغ فى الإنباء بحالها ، وتجنى الرجل عليها قول أبى الشيص :

إذا لم تكن طرق الهوى لى ذليلة تنكبتها وانحزت للجانب السهل
ومالى أرضى منه بالجور فى الهوى ولى مثله ألف وليس له مثلى

ثم انظر الى المجاهرة بالغدر ، والمجابهة بمكنون النفس ، والمظاهرة بدخيلة الرأى فى قول القائل :

يا رُب مثلِك فى النساء كثيرة بيضاء قـد متعتها بطلاق
لم تدر ما تحت الضلوع وغرها منى تجمل شيمتى وخلاقى

وأعقب ذلك الكساد التفريط فى حقوق المرأة . ومن ذا الذى يضن بالرخيص المبذول ، أو يصون البغيض المملول ؟ ومن التفريط تركها فى غياهب الجهل وطرحها فى مطارح الإهمال ، فلا تزويد بعلم ، ولا تجميل بأدب ، ولا تنشئة على دين وانقضى بانقضاء القرن الثالث للهجرة عهد المرأة العربية الكاتبة والشاعرة والعالمة والخطيبة ، وقالوا تَعلة لذلك : ان الذى يُعلم المرأة كمن يصقل السيف ليُقتل به ، وقالوا : لا تسق السهم سماً لترميك به يوماً ما ، وقالوا : اذا وصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة من الجهل ، وقالوا : لا تدع المرأة تضرب صبياً فإنه أعقل منها . وأمثال ذلك ونظائره كثير

ومن التفريط فى المرأة ترك الحفاظ لها ، والغيرة عليها . ولا أقول ان ذلك كان سَنناً عاماً لأهل العراق ، ولكنه مما فشا فيهم ، وذاع فى أشعارهم وأخبارهم ، وأثر عن سامتهم وعامتهم . وليس بسر ما وضعه أهل هذا البلد من الكنايات وما أرسلوه من النوادر ، وما أذاعوه من الشعر عن المفرّطين فى أعراضهم ، المغضين عن شرف حلائلهم مما استفاضت به الكتب ، وتظاهرت عليه الأخبار

اباحة المتعة والزواج الموقوت

المتعة عَقد بين الرجل والمرأة صيغته أن يقول الرجل أتمتع أو أستمتع بك ، أو ما اليهما مما اشتق من هذا اللفظ ، فتجيبه المرأة بالقبول ولا تلزمه الشهود والزواج الموقت صيغة كصيغة الزواج العامة إلا أنه موقوت بوقت ، وقد أحلهما الإسلام معاً باسم المتعة فى السنة الأولى من الهجرة ، ثم حرمهما الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . على أن المسلمين ما برحوا يتمتعون طوال عهد أبى بكر وصدرا من عهد عمر لأن منهم من لم يصله حديث المنع حتى أخذهم عمر بمنعه

وحسر لهم عن حجة تحريمه فكفوا عنه، وأقاموا بعدها لا يبيحون المتعة إلا فريقاً من الشيعة أباحوها معتمدين على فتوى نسبت الى على عليه السلام، وأخرى قال بها ابن عباس رضى الله عنهما. وما زال جمهور المسلمين يتحامون هذا الأسلوب من الزواج حتى أباحها المأمون للمسلمين عامة، وظاهر غرضه الانحياز الى على وابن عباس لأنه كان يُولِى الشيعة رأيه ويمنحهم قياده، أما حقيقته على ما أرى فعلاج ذلك الكساد الذى ينذر الأمة بالوبال العاجل والموت المحيق، على أنه لم يحسم داء ولم يدفع بلاء. لذلك حرمه على الناس اعتداداً بحديث صدع به قاضيه يحيى بن اكثم

آثام الظنون

استنشى الناس فى العهد العباسى نشوة الحضارة وابتلَوْا سكرة النعيم وسارت المرأة فى أثر الرجل ناهزة بدلوه مسيمة أفياء سرحته، والمرأة ذات حِسٍّ وثاب، تدفعها إلى الكمال فتسير الى أبعد حدوده وتقذف بها الى النقص فتتردى الى أعمق وهاده، فلما أفاق الرجل وأبصر المرأة مرخاة العنان لا يردها زجر ولا يلويها تحرج أنشأ يَلْتدم حزناً ويستشرى غضباً كان لم تكن له فى ذلك الخطب يد أيدة ولا جهد عميق، على أن مما يملك الرجل التعليل والتأويل، فهو اذا ضل راح يلتمس المعاذير لهذا الضلال — وربما موّه الرأى فاذا الضلال هدى واذا الشطط قصد مبين، لذلك راح يعزو ما تورطت فيه المرأة الى سوء فطرتها ولؤم غريزتها وقبح دخيلتها وأنها أشرى الشر وأسوأ السوء، وزور الرجال أحاديث نحلوها رسول الله وفيها أن المرأة قرارة اللؤم ودارته ومنبت الشر ونبعته، كان لم يكن منها أمه ولا زوجه ولا ابنته التى عدها عديل نفسه، وادخر الله منها سلالة نبيه، ونسبوا الى فلاسفة اليونان والهند تشبيههم المرأة بالصائد الخاتل والحية الرقشاء؟! ومما زوروه من الحديث: أوثق سلاح ابليس النساء — النساء حبائل الشيطان — شاوروهن وخالفوهن — اياك

ومشاورة النساء فان رأيهن الى أفن وعزمهن الى وهن — النساء شر كله وشر ما فيهن كلِّه الاستغناء عنهن . ومما نحلوه صحابة رسول الله دعواهم أن علياً عليه السلام قال «لا تطيعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن يدبرن العيال، فانهن ان تركن وما يردن أوردن المهالك وأزلن المالك، لا دين لهن عند لذاتهن، ولا عقل لهن عند شهواتهن ، ينسين الخير ويحفظن الشر ، يتهافتن فى البهتان ويتمادين فى الطغيان ويتصدين للشيطان» وقولهم على لسان سَلْمان رضى الله عنه : النساء عِيٌّ وعورة ، فداووا العى بالسكوت، والعورة بالبيوت. وزعموا أن من الأقدمين من قال لا تدع المرأة تضرب صبياً فانه أعقل منها. ومنهم من قال اذا وصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة من الجهل . وأن سقراط رأى امرأة تحمل ناراً فقال : نار تحمل ناراً والحامل شر من المحمول . وقيل له أى السباع شر؟ فقال المرأة.

كل ذلك وأمثاله لم تقلبه الألسنة إلا فى العهد العباسى ، وقد ظهر اختيان المرأة فى أحط مظاهره على ألسنة الشعراء ، ومن أشنع ما قيل فى ذلك العهد

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن   جزوعاً اذا بانت ، فسوف تبين
وان هى أعطتك اللِّيان فانها   لغيرك من خلانها ستلين
وخنها وان كانت تفى لك انها   على مدد الأيام سوف تخون
وان حلفت لا ينقض النأى عهدها   فليس لمخضوب البنان يمين

ثم ما زال الشعراء يتداركون على ذلك السَّنَن الوعر من هُجر الكلام ومُرِّه حتى جاء أبو العلاء فاتهم المرأة فى ذمتها وأمانتها ودينها وخلقها ! ولم يدع لها لمحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر ، وهو فى ذلك لم يَعْدُ ما يقوله أهل هذا العصر فى المرأة ، ونحن هنا نلم بشىء مما قال فى هذا السبيل . قال

وأظهر من ضوارب فى نعيم   نعام فى الفلا متهبرات[1]
تَقَيَّد لفظها عن كل بر   مواش بالحُلِيِّ مقيدات
عَجِلن الى مساءة مستجير   لواءٍ فى الخطا متأبرات
وتنقص خيرَها أثراً وفتكا   صواحب منطق متزيدات
وسَبَّح بالضحى ظَبَيات مَرْدٍ   بكل عظيمة متمردات[2]
وقد أُغْمِدْن فى أزر ولكن   سيوف لحاظهن مجردات
وورّدت اللباس بِلَون صبغ   خدود بالشباب موردات

وقال :

قد أهملت للخيَاط ابرتها   فصادفت ابرة لعقربها
فهى تُسَقّى الحليب ليلتها   ولم يكن من لذيذ مشربها

الحجـــاب

وكان لزاماً بعد أن أوحشت عقيدة الرجل فى المرأة أن يقصيها عن منال العيون ويحجبها عن محال المآثم، فما لبث أن أرخى عليها الحجب وأسدل دونها الأستار وعفّى على كل أثر ينبئ عنها أو يشعر بوجودها ، وراح يتأول فيما أباح الدين رؤيته منها ، وأكثر من فعل ذلك المتأخرون من فقهاء الحنفية ، وأنت تعلم أن الاسلام أباح للرجل أن يطّلع على وجه المرأة وكفيها وقدميها . فانظر كيف تأولوا فى ذلك ! أما الوجه فقد قال صاحب « الدر » « وتُمنع — المرأة — من كشف الوجه بين الرجال لخوف الفتنة » وأما الكف فقد قالوا : إن ظهره عورة ، كما قالوا : أن باطن القدمين عورة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الحجاب، بل إنهم تأولوا كذلك فى صوتها فقالوا : إن نغمتها — حتى فى قراءة القرآن الكريم — عورة . وزاد صاحب

(١) كلات الهبير — حب الحنظل   (٢) المرد غصن الأراك

الكافى فقال : لا يجوز للمرأة أن تلبي جهرة لأن صوتها عورة ، بل لقد تجاوز صاحب الفتح كل ذلك إلى الفتوى بفساد صلاة المرأة لو جهرت بالقراءة

كل ذلك مما تأوله فقهاء القرن الخامس وما يليه — باسم الدين — درءًا للفتنة الناشبة وحسماً للداء الوبيل . وما عسى أن يفعل هؤلاء وقد طغى الفساد على المشاعر الفاضلة فلا يُعرف من المرأة إلا أنها ذريعة إلى مأرب فاسد وسبيل إلى مطمح وخيم

ولقد أغرق الناس فى حجاب المرأة حتى عِيب عليهم أن يذكروا اسمها ، وبعد أن كان معاوية يتحدث عن نفسه فى مجلس خلافته فيبدأ حديثه بقوله «أنا ابن هند» وبعد أن جاء شاعر بنى أمية يمدح فحل أجمتهم عبد الملك بن مروان بقوله

أنت ابن عائشة التى فضلت أروم نسائها

بعد كل هذا وأشباهه أصبح اسم المرأة عورة يعاب ذكره وتُتَلَمّس وجوه الكناية عنه ، حتى لقد أراد أبو الطيب احمد بن الحسين المتنبي أن يرثى خَوْلة بنت حمدان أخت سيف الدولة فسماها « فَعْلَة » ، وهذا قوله :

كأنَّ فَعْلَةَ لم تملأ مواكبها ديار بكر ولم تَخْلَع ولم تهب

هذا والمتنبي شاعر نشأ بين الاعراب وسار فى مساقهم ورغم ذلك لم يشأ أن يصرح باسم مرثيَّته وذكر عنها تلك الكناية الغريبة

فانظر إلى هذا النوع من الحجاب كيف ألجأ الشاعر العظيم إلى تلك الكناية الفاسدة ، وأخرجه ذلك المخرج المعيب ؟ ولقد أراد ذلك الشاعر أن يصف ذلك الحجاب فى رثائه والدة سيف الدولة فدعاه دفناً ! وذلك قوله

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

على المدفون قبل الموت صوناً وبعد الموت فى شرف الخلال

وأصبح أولئك الشعراء يعدون الاغراق فى الحجاب فضلاً ومحمدة حتى للبنات الصغيرات ! وانظر الى الشريف الرضى كيف أراد أن يرثى صغيرة من هؤلاء فقال

يا أرض ما الدَّرء فى شخص عصفت به   بين الأقارب والعواد والخول
أردت أن تحجب البيداء طلعته   ألم يكن قبل محجوبا عن المقل ؟

اذاً فقد كتب على المرأة الشريفة فى هذا العهد أن توءد فى الحجاب وتظل فيه حتى تموت

ومن بعد القرن الخامس غابت المرأة العراقية فى الخفاء حتّى عن التاريخ ، فأصبح لا يهتم بها ولا يذكرها بخير ولا شر

محنة المرأة

فى فتنة القرامطة

فرقة الاباحة

القرامطة فريق من غلاة الباطنية ، ولهؤلاء الباطنية حديث طويل يجب أن نجمله إجمالاً ثم نأخذ فيما قصدنا له

لقد ظهر مذهب الباطنية فى القرن الثالث ، والدعاة اليه قوم من أهل فارس أرادوا أن يوهنوا العرب فى دينهم كما أوهنوهم فى قوميتهم ، ولهؤلاء القوم فى دعوتهم حذق ورفق فلم يهاجموا الاسلام طعناً وتجريحاً كما كان يفعل دعاة الأديان حين يدعون المسلمين الى اديانهم ، بل ظهروا للناس مسلمين لا يعدلون عن الاسلام الى سواه ، ثم تأولوا كل حقيقة من حقائقه وكل شعيرة من شعائره ، فتأولوا الملائكة والعرش واللوح المحفوظ والبعث والجنة والنار الى معان بعيدة لا ظواهر لها ، حتى ذات الخالق جل وعز تأولوها الى قوى الطبيعة ، وتأولوا كذلك الصلاة والصيام

والحج الى ما ليس من شأنها ، وذهبوا يتصلون بنفوس العامة اتصالاً بارعاً دقيقاً. فهم يأتون السُّنى من غير الناحية التى يأتون منها المعتزلى، ويخاطبون المتصوف من غير هاتين الناحيتين ، ويبيحون للغواة صنوف اللذات ، وجعلوا من حق المرء أن يتزوج أخته وابنته كما يفعل المجوس، وفى ذلك يقول أحد دعاتهم : « وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم تكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه ويُنكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه احق بأخته و بنتهِ من الأجنبى »

ويرى هؤلاء أن الأنبياء قوم أظهرتهم مواهبهم ونفاذ عقولهم وقوة تأثيرهم فى نفوس الناس

والقرامطة فريق من غلاة الباطنية، وهم يدينون بالقتل والتدمير واخافة السبيل أكثر مما يدينون برأى أو ينزعون عن عقيدة ، وكثيراً ما كانوا يُغيرون على الحجيج فى طريقه الى مكة أو فى طوافه أو عند افاضته فيقتلون الرجال ويذبحون الأطفال ويستحيون من راق فى أعينهم من النساء

وزعيم هؤلاء أحمد بن قرمط ، كان من صابئة حرّان ، ثم قدم الكوفة فاجتذب اليه عامتها وأحل لهم الموبقات وخاض بهم الخبائث وقطع بهم السبيل واجتمع اليه خلق كثير؛ وخلف من بعده خلف كان أشد منه فتكاً وأنكى طريقة ، وقد حدثوا عن الحسين بن زكرويه القرمطى أنه ربما أغار على المدينة فقتل رجالها ونساءها وأطفالها وماشيتها وخرج وليس بها عين تطرف

وكانوا يبيحون للمرأة أن تتزوج بالكثير من الرجال

ومما حدث الطبرى عن أبى الحسن المتطبب ببغداد قال : جاءتنى امرأة بعد غلبة المكتفى بالله على صاحب الشامة — من زعماء القرامطة — فقالت لى : إنى

أريد أن تعالج شيئاً فى كتفى، قلت وما هو؟ قالت جرح، قلت أنا كحّال وههنا امرأة تعالج النساء وتعالج الجراحات فانتظرى مجيئها، فقعدت ورأيتها مكروبة كئيبة باكية فسألتها عن حالها وقلت ماسبب جراحتك، قالت! قصتى تطول. قلت حدثينى بها واصْدُقينى، وقد خلا من كان عندى فقالت: كان لى ابن غاب عنى وطالت غيبته وخلّف على أخَوات له فضقت واحتجت واشتقت اليه، وكان شَخَص إلى ناحية الرَّقة فخرجت إلى الموصل وإلى الرقة كل ذلك أطلبه وأسأل عنه فلم أُدَل عليه فخرجت عن الرَّقة فى طلبه فوقعت فى عسكر القرمطى فجعلت أطوف وأطلبهُ فبينا أنا كذلك إذ رأيته فتعلقت به فقلت ابنى! فقال أمى؟ فقلت نعم! قال ما فعل أخواتى! قلت بخير، وشكوت ما نالنا بعده من الضيق فمضى بى إلى منزله وجلس بين يدى وجعل يسائلنى عن أخبارنا فخبرته ثم قال دعينى من هذا واخبرينى ما دينك؟ فقلت يا بنى أما تعرفنى؟! فقال وكيف لا أعرفك، فقلت ولِمَ تسألنى عن دينى وأنت تعرفنى وتعرف دينى. فقال كل ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه الآن فأعظمت ذلك وعجبت منه، فلما رآنى كذلك خرج وتركنى، ثم وجّه إلىّ بخبز ولحم وما يصلحنى وقال اطبخيه، فتركته ولم أمسّه ثم عاد فطبخه وأصلح أمر منزله فدق الباب داق فخرج اليه فاذا رجل يسأله ويقول له : هذه القادمة عليه تحسن أن تصلح من أمر النساء شيئاً؟ فسألنى فقلت نعم، قال امضى معى، فمضيت فأدخلنى داراً، وإذا امرأة تطلُق فقعدت بين يديها وجعلت أكلمها فلا تكلمنى، فقال لى الرجل الذى جاء بى اليها ما عليك من كلامها، أصلحى أمر هذه ودعى كلامها، فأقمت حتى ولدت غلاماً وأصلحت من شأنها وجعلت أكلمها وأتلطف بها وأقول لها يا هذه لا تحتشمينى فقد وجب حق عليك، أخبرينى خبرك وقصتك ومَن والد هذا الصبى؟ فقالت تسألينى عن أبيه لتطالبيه بشىء يهبه لك؟ فقلت لا، ولكن أحب أن أعلم

خبرك . فقالت : إنى امرأة هاشمية — ورفعت رأسها فرأيت أحسن الناس وجهاً — وإن هؤلاء القوم أتونا فذبحوا أبى وأمى وإخوتى وأهلى جميعاً ، ثم أخذنى رئيسهم فأقمت عنده خمسة أيام ، ثم أخرجنى فدفعنى إلى أصحابه فقال طهروها ، فأرادوا قتلى فبكيت ، وكان بين يديه رجل من قواده فقال هبها لى ، فقال خذها فأخذنى ، وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام من أصحابه فسلوا سيوفهم وقالوا لا نسلمها اليك ، إما أن تدفعها الينا وإلا قتلناها ، وأرادوا قتلى وضجوا فدعاهم رئيسهم القرمطى وسألهم عن خبرهم فخبّروه فقال تكون لكم أربعتكم ، فأخذونى ، فأنا مقيمة معهم أربعتهم ، والله ما أدرى ممن هو هذا الولد منهم

قالت فجاء بعد المساء رجل فقالت له هنّيه فهنأته بالمولود فأعطانى سبيكة فضة وجاء آخر وآخر أهنىء كل واحد منهم فيعطينى سبيكة فضة ، فلما كان فى السحر جاء جماعة مع رجل وبين يديه شمع وعليه ثياب خز تفوح منه رائحة المسك فقالت له هنيه ! فقمت اليــه فقلت بيّض الله وجهك والحمد لله الذى رزقك هذا الابن ودعوت له فأعطانى سبيكة فيها ألف درهم ، وبات الرجل فى بيت وبتّ مع المرأة فى بيت ،فلما أصبحت قلت للمرأة ياهذه قد وجب عليك حقى ،فاللهَ اللهَ فىّ ، خلصينى قالت مم أخلصك ؟ فخبرتها خبر ابنى وقلت لها إنى جئت راغبة اليه، وانه قال لى كيت وكيت ، وليس فى يدى منه شىء ، ولى بنات ضعاف خلفتهن بأسوأ حال ، فخلصينى من ههنا لأصل الى بناتى . فقالت عليك بالرجل الذى جاء آخر القوم فسليه ذلك فانه يخلصك ، فأقمت يومى الى أن أمسيت ، فلما انصرف تقدمت اليه وقبلت يده ورجله وقلت يا سيدى قد وجب حقى عليك ، وقد أغنانى الله على يديك بما أعطيتنى . ولى بنات ضعاف فقراء ، فان أذنت لى أن أمضى فأجيئك ببناتى حتى يخدمنك ويكنّ بين يديك ! فقال وتفعلين ؟ قلت نعم ! فدعا قوماً من غلمانه فقال امضوا

معها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا ثم اتركوها وارجعوا ، فحملونى على دابة ومضوا بى ، قالت فبينما نحن نسير واذا أنا بابنى يركض وقد كنا سرنا عشرة فراسخ فيما خبرنى به القوم الذين معى ، فلحقنى وقال يا فاعلة ! زعمت أنك تمضين وتجيئين بيناتك ؟ ! وسلّ سيفه ليضربنى فمنعه القوم فلحقنى طرف السيف فوقع فى كتفى ، وسل القوم سيوفهم فأرادوه فتنحى عنى وساروا بى حتى بلغوا بى الموضع الذى سماه لهم صاحبهم فتركونى وقَدِمْت

فالقرامطة اذاً قوم يجذبون قلوب الفتيان والفتيات بما يزينون لهم من ضروب الملذات ومقارفة المآثم، وكانت سطوتهم مصبوبة على البيت الحرام ومن يلوذون به لأنه مثابة المسلمين ومعقد ألفتهم ومناط وحدتهم ومجتمع كلمتهم . وقد أحرقوا أستار الكعبة وكسروا الحجر الأسود وملأوا زمزم بأجساد القتلى وذبحوا من الحجاج من لا يحصيهم الا الله، كل ذلك لينتقموا من الاسلام بالخسف والعسف ما لم يُمَكّن الباطنيون من قمعه بالرفق والحيلة

وقد أقامت هذه الفرقة المُبِيحة المبيحة أمد القرن الرابع ثم تآزر عليهم المسلمون فأبادوهم جميعاً

الحياة الفكرية

للمرأة فى العراق

تنقلت المرأة العربية العراقية فى دورين متباينين :

أما الأول فمداه مائتا عام ، وربما أربى على ذلك قليلاً . وفى ذلك العهد لم تقصر عن اللحاق بالرجل فى بعض نواحى العلم والفن وان لم يؤثر لها فيهما شىء كثير . وقد أسلفت لك شيئاً مما ذاع من دور الخلافة من شعر النساء وغِناء النساء ، وما أثر عن نساء العلويين من دراسة علوم الدين ، وكذلك ظهر من النساء من تعلمن الطب ودرسن الفلسفة ، ومن هؤلاء من جاذبن الملحدين أسباب الزيغ والالحاد وجهرن بذلك كله ، وقد تحدث الطبرى عن نساء أقررن بالزندقة بين يدى المهدى حين سلط سيفه على الزنادقة . وممن أقرَّبها هنالك فاطمة بنت يعقوب ابن الفضل وخديجة امرأته وهما من بيت المهدى ولحمته . وظهر كذلك من درسن كتبها وأقررن بها بين يدى المأمون . ولعل هذا الدور الأول من العهد العباسى أول عهد للناس ظهرت فيه المرأة قاضية تحكم بين الناس باسم الخليفة أمير المؤمنين ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المقتدر ، وكان مرجع الأمر حينذاك الى امرأتين : السيدة والدة المقتدر وأم موسى القهرمانة ، وكان لهما الرأى الأعلى فيما دق وجل من أمر الخلافة وشئون الحكم ، وقد عرض للسيدة أم المقتدر أن تَرُوض النساء على القضاء فاختارت قهرمانة لها تدعى « مَثَل » وأمرتها أن تجلس بالرصافة للمظالم وتنظر فى كتب الناس يوماً فى كل أسبوع — قال الصابى : فلما رأى الناس ذلك أنكروه واستبشعوه وكثر عيبهم له والطعن فيه ، وجلست أول يوم فلم يكن لها فيه طائل ، ثم جلست فى اليوم الثانى وأحضرت القاضى أبا الحسن فحسّن أمرها وأصلح عليها

وخرجت التوقيعات على سداد فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس الى ما كانوا قد نفروا منه من صدارتها للقضاء ونظرها فى المظالم

لم يكن إذاً ذلك العهد من حياة المرأة عهد جهالة فاشية ولا تفكير مضطرب ولكنه كان عهد اضطراب فى الخلق والتياث فى السير وانحراف عن قصد السبيل وخروج عن سنّة المرأة وواجبها الذى ناطه الله بها ووكلها به . ومن خُلق الرجل أن يندفع فى لهوه ما شاء أن يندفع ، فاذا تأثرت المرأة به — وحَقَّ لها أن تتأثر — لها عنها حتى يفيق ، فان أفاق وكان هناك سبيل الى ردها عن غايتها دفعها بكلتا يديه وحمّلها وحدها عاقبة ما آل اليه أمره وأمرها من شر ووبال ، ثم لا يزال يسلب منها كل يوم حقاً ويحمّلها كل آن مغرما حتى تصبح هملاً من الأهمال ، أما اذا طال الأمد على اندفاعها وطال إغضاء الرجل عنها حتى يسترخى عنانها وتستحيل طبيعتها ويصلُب على تلك الحال عودها فان من أعسر الأمور أن يغلبها الرجل على أمرها ويردها عن غايتها . ومهما بدا من الرجل والمرأة من ضروب الرفق والود والمحاسنة والملاينة فان بينهما صراعاً قد لا يُحِسّانه ولا يأبهان به ، وغايته انتزاع كليهما ما شاء من حق صاحبه . ولقد ينزل أحدهما لصاحبه عن بعض حقه أو كله تجملاً وتفضلاً ، فاذا أراد أن يستردّه يوماً لا يجد السبيل اليه ، ثم ينتهى هذا التجمل والتفضل الى استرخاء واستخذاء وتسليم واستسلام ، وقلّ من الفريقين من يرضى ببعض الغلبة على غريمه ، بل لا يزال يقلّم منه كل يوم ظفراً ويطوقه طوقاً حتى يجعل حياته لغواً ووجوده عدماً ويعد ذلك بعض حقه الذى لا يُدفع عنه أو ينازَع فيه

ونعود الى المرأة العراقية فى الدولة العباسية فنقول : إنها تنكّبت الطريق وجاوزت النهج ولكن الرجل لم يمهلها حتى يكون خروجها طبعاً مألوفاً ودستوراً نافذاً وشريعة موضوعة بل عاجلها دون الغاية وردها قبل القرار ، ولا يكفى قرن

وبعض قرن ليكون للمرأة من مُحدَثات الحقوق ما لا سبيل الى تغييره والعبث به فلم يجد عناء فى سلبها كل ما انتزعته من حق غير مشروع ، ثم لم يقف عند هذا الحد من الغلَب ، بل ذادها عن حقها الذى سوّغه الله لها فحرّم تعليمها ، وحرّم على نفسه العناية بأمرها ، وأبعدها عن منال العيون والألسنة ، ولم يعد يذكرها إلاّ بالسوء ولا ينالها إلاّ بالشر ، وتلك حال المندفع اذا رُدّ ، والمتغلب اذا قُهر .

وكان من أثر ذلك كله انحطاط تفكيرها وشيوع أمّيّتها ، فلم نعد نسمع فى العراق بالكاتبة ولا الشاعرة ولا المتأدبة ولا المتفقهة إلا ما يشبه الشجرة الناجمة فى الصحراء المقفرة ، وأصبح نسك المتنسكات خَرَفاً وشعوذة ، وأصبحت الأسوة بهن جهلاً وحماقة ، وشاع ذلك الضرب من النسك حتى رُفِعت القباب فى كل إقليم وفى كل مدينة وفى كل قرية وكل دسكرة على أمثال هؤلاء ، وكان شيوع ذلك من الفتن التى أصابت الايمان المتين فى صدور المؤمنين .

المرأة البدوية

أقام أهل بادية العراق على ما كانوا عليه من طبع وخلق وعادة وأدب ، فلم يغير نظام الدولة شيئاً من نظام الجماعة ولا أسلوب الحياة ، ومن أجل ذلك بقيت المرأة الأعرابية على صفاء فطرتها وسناء رأيها وقوة نفسها ونصاعة أدبها ، وكان علماء الأدب ورواة الشعر يذهبون الى البادية فيستمعون مأثور الكلام من الرجال والنساء ثم يعودون فيُطرفون به الخلفاء ويُناقلون به العلماء ويتحدثون به فى مجالس العلم وفى حَلَقات الدروس ؛ وربما جدّ الخلاف بين أئمة النحو فلا يطمئن لهم رأى حتى يأتوا بأعرابى من البادية فيحتكمون اليه ، لأنه لا يسيغ الخطأ ولا ينطق به ؛ وبقيت البادية مباءة للصحيح من اللغة والفصيح من الأسلوب أمداً طويلاً . واذا

كانت المرأة الأعرابية قد فقدت فى أخريات هذا العهد بيانها العذب وأسلوبها البديع فلِماَ أصاب الأعراب من التمزيق والشتات وما شملهم من الدعة والسكون، فلا مجامع تعقد ولا أسواق تقام ولا حروب تشبّ ولا غارات تثار، وقد كانَ لهم من هذه وتلك مجالات فِسَاح يأتون فيها بالقصائد المفاضة، والأمثال المرسَلة، والحكم الجامعة، والخطب الطوال.

مأثور من أدب النساء

١ — قالت عُلَيّة بنت المهدى — وهو مما يتغنى به:

مالى أرى الأبصار بى جافيه   لم تلتفت منى إلى ناحيــة
لا ينظرُ النـــاس إلى المبتَلَى   وإنما النـــاس مع العافية
صحبي سلوا ربكم العافيـــة   فقد دهتنى بعـدكم داهية
صارَمَنِى من بعدكم سيدى   فالعين من هجرانه باكية

٢ — خرج المهدى يتنزه بعيسى باذ، وقَدِم هنالك النُّصَيب ومعه ابنته حَجْناء، فدخل على المهدى وهى معه، فأنشدته قولها فيه:

رُبَّ عيش ولذة ونعيم   وبهـاء بِمُشْرِق الميدان
بسط الله فيـه أبهى بساط   من بهار وزاهر الحوذان
ثم من ناضرمن العُشُبِ الأخـــضر تزهى شقائق النعمان
مده الله بالتحاسين حتى   قصُرت دون طوله العينان
حفلت حافتان حيث تناهى   بخيام فى العين كالظُّلمان[1]
زينوا وسطهـا بطارمة مثـــل الثريا يحفهـا النسران

(١) الظلمان: جمع ظليم — ذكر النعام

ثم حَشْوُ الخيام بيض كأمثا ... ل المها في صرائم الكثبان
يتجارين في غناء شجيّ ... «أسعداني يا نخلتي حلوان»
فبِقصر السلام من سلَّم اللـــه وأبقى ، خليفةُ الرحمن
ولديه الغزلان بل هن أبهى ... عنده من شوارد الغزلان
يا له منظراً ويوم سرور ... شهدت لذتيه كل حَصَان

فأمر لها المهدي بعشرة آلاف درهم .

٣ — حدّث الأصمعي قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول: والله إن شربك لاشتفاف[١] ، وإن ضجعتك لانعجاف[٢] وإن شِملتك لالتفاف[٣] وإنك لتشبع ليلة تُضافَ ، وتنام ليلة تخاف . فقال لها : والله إنكِ لكرواء[٤] الساقين ، قعواء[٥] الفخذين ، مقّاء[٦] الرفغين، مفاضة[٧] الكشحين ، ضيفك جائع، وشرك شائع .

٤ — لما قُتل الفضل ابن سهل دخل المأمون على أمه فوجدها تبكي فقال لها: أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لي ابنا مثلك لجدير أن يُبكى عليه

٥ — لما أرسل الأمين علي بن عيسى إلى خراسان لقتال المأمون حضر إلى باب زبيدة ليودعها، فقالت له : يا علي! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي وإليه انتهت شفقتي فاني على عبد الله — المأمون — منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ولدي ملك نافس أخاه في سلطانه . فاعرف لعبد الله حق ولادتهِ وأخوته ، ولا تَجبَهه بالكلام فانك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ،

---

(١) الاشتفاف : شرب ما في الاناء كله فلا تبق منه على بقية (٢) الانعجاف : الانصراع تصفه بشدة الوخم (٣) الشملة : الاشتمال على الرداء والالتفاف بالرداء ضعف ومسكنة (٤) الكرواء : الدقيقة الساقين (٥) القعواء : المتباعدة ما بين الفخذين (٦) المقاء : الدقيقة الفخذين (٧) المفاضة : المسترخية والكشحان : الخاصرتان

ولا توهنه بقيد أو غُل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تَعْنُفْ عليه فى السير ، ولا تُساوِه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، واذا شتمك فاحتمل منه .

٦ — قال الأصمعى : دَفَعْتُ فى بعض تطوافى الى امرأة من ولد ابن هَرْمة[١] فسألتها القِرَى ، فقالت : إنى والله مُرْمِلة مُسْنِتةُ ما عندى شىء ، فقلت أما عندك جَزُور؟ فقالت والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت أما ابن هَرْمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، إنى لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل[٢]

إنى اذا ما البخيل آمنها باتت ضُموراً منى على وَجَل

ووليت فنادت : اربَع أيها الراكب، فِعله والله ذلك أقلّه عندنا[٣]، فقلت إلاّ تكونى أوسعتنا قِرًى فقد أوسعتِنا جواباً

٧ — حديث غِربان النوى .

حدّث ابن السراج قال : أخبرنى بعض الاخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لُمَّةً نجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً ، فضجرنا من المقام فى المنازل، فقال بعضنا : لو عزمتم فخرجنا الى بعض البساتين ! فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينا نحن فيه إذ سمعت ضجة راعتنا ، فقلت للبستانى : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لهن قصة ، فقلت له أنا دون أصحابى : وما هى ؟ قال العِيان اكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابى أقسمت ألاّ يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدى

---

(١) أحد الشعراء الاجواد الفرسان (٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول أنه لا يبقيها حتى يعظم فصيلها وكلا شطرى البيت كناية عن تكرمه بذبح الابل فلا يبقى منها على شىء

(٣) تقول هذا التكرم أقل ما عندنا من الطعام

فصعدت إلى موضع أشرف عليهن وأراهن ولا يريننى ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكلهن ، ومعهن خدم لهن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لهن ومعه خمسة أجزاء من القرآن فدفع الى كل واحدة منهن جزءًا ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن فى ثوب دَبِيقىّ فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها ثم أخذن فى النوح فقالت الأولى :

خَلَس الزمان أعز مختَلَس ويد الزمان كثيرة الخُلَس
لِلّه هالكة فُجعت بها ما كان أبعدها من الدنَس
أتت البشارة والنَّعىُّ بها يا قربَ مأتمها من العُرُس

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بأنس نفسى عَنوةً وبقيت فرداً ليس لى من مؤنس
أودى بمُلْكَ ولو تُفَادَى نفسها لفديتها مِمَّن أُعِزُّ بأنفُس
ظلّت تكلمنى كلاماً مُطمعا لم أسترب فيه بشىء مؤيِسِ
حتى إذا فتر اللسان وأصبحت للموت قد ذبلت ذبول النرجس
وتسهلت منها محاسن وجهها وعلا الأنين تَحُثُّه بتنفُّس
جعل الرجاء مطامعى يأساً كما قطع الرجاءَ صحيفةُ المتلمس

ثم قالت الثالثة :

جرت على عهدها الليالى وأُحدِثَت بعدها أمورُ
فاعتضْت باليأس منك صبراً فاعتدل اليأس والسرور
فلست أرجو ولست أخشى ما أحدثَتْ بعدك الدهور
فليُبلغ الدهر فى مساتى فما عسى جهده يضير

ثم قالت الرابعة :

خِدنٌ نفيس من الدنيا فجعت به　　أفضى اليه الردى فى حومة القدر

وَيْحَ المنايا أما تنفك أسهمها　　معلقات بصدر القوس والوتر

يبلى الجديدان والأيام بالية　　والدهر يُبْلِي وتَبلى جدَّة الحجر

ثم قمن فقلن بصوت واحد :

كنا من المساعدة　　نحيا بنفس واحدة

فمات نصف نفسي　　حين ثوى فى الرمس

فما بقائى بعدَهُ　　وشطر نفسى عنده

فهل سمعتم قبلى　　فيمن مضى بمثلى

عاش بنصف رُوح　　فى بدن صحيح

ثم تنحين وقلن لبعض الخدم كم عندك منهن ؟ قال أربعة ، قلن ائت بهن ، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفات فوضع القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت :

لعمرى لقد صاح الغراب ببينهم　　فأوجع قلبي بالحديث الذى يبدى

فقلت له أفصحت لا طرت بعدها　　بريش فهل للقلب ويحك من رد

ثم أخذن واحداً من الغربان فنتفن ريشه حتي تركنه كأن لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدرى ما هى حتى قتلنه ، ثم غنت :

أشاقك والليل مُلْقى الجِرَان　　غراب ينوح على غصن بانِ

أحَصُّ الجناح شديد الصياح　　يبكى بعينين ما تهملانِ

وفى نَعَبَات الغراب اغتراب　　وفى البان بين بعيد التدانى

ثم أخذن الثانى فشددن فى رجليه خيطين وباعدن بينهما وجعلن يقلن له :

أتبكى بلا دمع وتفرق بين الألاف ! فمن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة

ألا يا غراب البين لونك شاحب ... وأنت بِلَوعات الفراق جدير
فبيّن لنا ما قلت إذ أنت واقع ... وبين لنا ما قلت حين تطير
فان يك حقاً ما تقول فأصبحت ... همومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسوراً عديماً لناصر ... كما ليس لى من ظالِمِىّ نصير

ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيبت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت فَفُعِل به ذلك ، ثم غنت الرابعة

عشيةَ ما لى حيلة غير أننى ... بلقط الحصى والخط فى الدار مولع
أخط وأمحو كل ما قد خططته ... بدمعِىَ والغربانُ فى الدار وُقع

ثم قالت لأخواتها : أىَّ قتلة أقتله ؟ فقلن لها علّقيه برجليه وشدى فى رأسه شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغداء فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله وأخذن عيدانهن فغنين ، فغنت الأولى :

أبكىَ فراقكمُ عينِى فأرّقها ... إن المحب على الأحباب بَكّاءِ
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم ... حتى تفانوا وريب الدهر عداء

ثم غنت الثانية :

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمرُهُ الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يَروعهما الذعر

ثم غنت الثالثة

سأبكى على ما فات منك صبابة ... وأندب أيام الأمانى الذواهب

أحين دنا مَن كنت أرجو دنوّه رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً وكنت مُحَسَّداً فصبراً على مكروه مُر العواقب

ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الأيام حتى يسرنى بك الدهر أو تفنى حياتى مع الدهر
عزاء وصبراً أسعَدانى على الهوى وأحمد ما جرّبت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فعانقتها وبكت وبكين ثم شكون اليها جميع ما كن فيه، ثم أمرن بالصورة فطويت ، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلمهن ، فرفعت رأسى اليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغربان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته سبباً للكلام لأخبرناك بقصة الغربان . قال فقلت إنما أخبرتكن بالحق ، قلن وما الحق فى هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذاك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذاك صرت عدو كل غراب . فقلت لهن : فبالذى خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة الصورة لمَاَ خبّرْتُنّى بخبركن ! قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا حقه ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة ، لا تشرب منا واحدةٌ البارد دون صاحبتها ، فاختُرمت صاحبة الصورة من بيننا ، فنحن نصنع فى كل موضع نجتمع فيه مثل الذى رأيت ، وأقسمنا أن نقتل فى كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغربان لعلة كانت، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها و بين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تدمهن عندنا وتأمر بقتلهن ، فأقل ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به ، ولو كان فيك شىء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان ، ثم نهضن فمضين ورجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبتهن بعد ذلك فما وقعت لهن على خبر ولا رأيت لهن أثراً

٨ — حديث ناسكة

حدَّث التَّوَّزى عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والأُبلّة فاذا أنا بخباء أعراب قد زرعوا ، واذا أنا بخيمة ، وفى الخيمة جارية مجنونة عليها جبة صوف لا تباع ولا تشترى ، فدنوت فسلمت فلم ترد علىّ السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدونا ‏ ‏ إذ لمولاهمُ أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه ‏ ‏ فمضى ليلهم وهم ساهرونا
حيّرتهم محبـــة الله حتى ‏ ‏ علم الناس أنّ فيهم جنونا
هم أَلِبَّا ذوو عقول ولكن ‏ ‏ قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت اليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إِن سَلِم ، فتركتها وأتيت بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لآتينّها فأنظر قصتها فى هذا المطر، فاذا أنا بالزرع قد غرق واذا هى قائمة نحوه وهى تقول : والذى أسكن قلبى من طرف سحر بِصَفِىٍّ محبة اشتياقك إن قلبى ليوقن منك بالرضا ، ثم التفتت إلىّ فقالت يا هذا ! إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركّبه ، وأرسل عليه غيثاً فسقاه ، واطّلع عليه فحفظه ، فلما دنا حصاده أهلكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : العباد عبادك ، وأرزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت: اسكت يا عُتبة

إن إلهى لغنى حميـــد ‏ ‏ لى كل يوم منه رزق جديد
الحمد لله الذى لم يزل ‏ ‏ يفعل بى أكثر مما أريد

٩ — بين القبور

حدث التوّزى عن مصعب قال : قرأت على لوحين فوق قبرين :

أمغطًّى على بصرى فى الحـــب أم أنت أكمل الناس حسنا

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا

ورأيت امرأة عند القبرين وهى تقول: بأبى ! لم تمتعك الدنيا من لذتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفرتنى كدا ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعرى كيف وجدت مَقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ،ثم قالت : استودعتك من وهبك لى ثم سلبنى أسرَّ ما كنت بك . فقلت لها يا أمّه ! ارضَى بقضاء الله عز وجل وسلّمى لأمره. فقالت : هاه ! نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمنى الله أجرك ولا فتننى بفراقك . فقلت لها من هـذا ! فقالت : ابنى ، وهذه ابنة عمه ، كان مسمَّى بها ، زُفت اليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقضت ، فانصدع قلب ابنى فلحقت روحه روحها ، فدفنتهما فى ساعة واحدة ؛ فقلت فمن كتب هـذا على القبرين ، قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين فحفظتهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت ممن أنت ؟ فقالت فزارية ، قلت ومَن قائلهما قالت : كريم بن كريم ، سخى بن سخى ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن خارجة يقولهما فى امرأته حبيبة بنت أبى جندب الانصارى ، ثم قالت وهو الذى يقول :

يا مُنزل الغيث بعد ما قنطوا ويا ولى النعمـاء والمننِ

يكون ما شئت أن يكون وما قدرت ألا يكون لم يكن

يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن

أذكرُ من جارتى ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسن

ومن حديث يزيدنى مقة ما لحديث الموموق من ثمن

قال فكتبتها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين مابى من الأحزان

١٠ — حديث أرملة

حدّث الأصمعى قال :

سمعت رجلاً من تميم يقول : أضللت إبلاً لى فخرجت فى طلبهن ، فمررت بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : إبل لى أضللتها ، فهل عندك شىء من علمها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى ! قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من طريق الاختبار ، ثم تبسمت وتنفست الصُّعَداء ، ثم بكت وأطالت البكاء ، وأنشأت تقول :

إنى وإن عَرَضت أشياء تضحكنى ... لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليـــل أحيا لى تذكرَه ... والصبح يبعث أشجاناً على شجن
وكيف ترقد عين صار مؤنسها ... بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدّته ... كأن صورته الحسناءَ لم تكن
أبكى عليـــه حنيناً حين أذكره ... حنين والهـــة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهرى مصيبته ... وطيّر النوم عن عينى وأرّقنى
والله لا أنس حبى الدهر ما سجعت ... حمامة أو بكى طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها : هل لك من بعل لا تُذَم خلائقه وتومَن بوائقه ؟ فأطرقت مليا ، ثم أنشأت تقول :

كنا كغصنين فى أصل غذاؤهما ... ماء الجداول فى روضات جنات
فاجتثَّ خيرَهما من جنب صاحبه ... دهرٌ يكر بفرحات وترحات

وكان عاهدنى إن خاننى زمن ألا يضاجع أنثى بعـــد مثواتى
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُنَيات
فاصرف عنانك عمن ليس يردعه عن الوفاء خلاب فى التحيات

١١ — حديث فتاة

حدث التوّزى عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لى فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر . فقلت لصاحبي : لو ملت بنا إليها فاستسقيناها ماء ! ففعل ، فقلنا لهـا ، جعلنا الله فداءك ! اسقينا ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهى تقول :

ألا حيِّ شخصَىْ قاصدَين أراهما أقاما فما إن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقـاهما

١٢ — عظة امرأة

حدّث محمد بن سلام الجُمَحى يقول : سمعت رجلاً من بنى سُليم يقول : هوِيت امرأة من الحى، فكنت أتبعها إذا خرجت الى المسجد ، فعرفت ذلك منى، فقالت لى ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هى ؟ قلت مودتك ، قالت : دع ذلك ليوم التغابن[١] . قال فأبكتنى والله فما عدت إليها بعد ذلك

١٣ — ومن حديث أخرى : أن رجلاً رأى أعرابية بمكان خال ، والليل منسدل الستر فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : أنظر هل يرانا من أحد ! قال ما يرانا إلا الكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فبُهت الرجل وانصرف ذاهلاً ما يتكلم

(١) يوم التغابن ! يوم القيامة . سمى بذلك لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار

المرأة الاندلسية

ابتعد العرب بانتقالهم الى الأندلس عن اكثر ظواهر الحياة العربية الأولى . فهم من مهبطهم الجديد فى خميلة نشر الله عليها من سمات الحسن وآيات الجمال ما يستقيد العين والنفس والقلب والخيال ، حتى خُيّل لشاعرها أن يقول :

يا آل اندلس لله دركمُ ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تتقوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تُدخل بعد الجنة النار

وهم فوق ما نعموا به من زهو الطبيعة وجلوة الأرض . نعموا كذلك بالكثير الموفور من رفاهة العيش واغداق النعيم ، لِمَا آل إليهم من كنوز القُوط ولما حوته أرضهم وديارهم من أفانين الثراء وأسباب النعماء

وقد أصبحوا بهبوطهم تلك البلاد فى نجوة من بلادهم لا تصلهم بها الا الوفود المترددة بين الشرق والغرب على بعد الدار ونأى المزار ، أما جيرانهم الأدنَوْن وخلطاؤهم الأقربون فهم أهل البلاد الصميمون الذين تمتعوا بأوفى نصيب من بُلهْنية العيش ولذات الحياة وما يقتضيه كل ذلك من سرف وترف ولهو ونعيم .

وعلى الرغم من ذلك سار الأمويون فى الأندلس دهراً طويلاً على مسار أسلافهم فى الشرق من الاحتجاز بأنفسهم عن الأمم المغلوبة حفظاً لعصبيتهم ووقاية لانسابهم وحماية لأخلاقهم أن يوهنها الضعف والانحلال .

وفوق ذلك لبث الأمويون يطفئون الفتن ويخمدون الثورات ويدفعون العدو المتوثب على الثغور أمداً طويلا . فلم يرخوا أعنـــة اللهو الى حد بعيد كما كان العباسيون يفعلون ، حتى إن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وهو الذى رفع

الأندلس الى الذروة العليا من عزة الجانب ونضارة الحضارة وطيب العيش ونعيم الحياة لم يصف له من دهره — كما قال — إلا أربع عشرة ليلة ، وقد أقام فى الملك خمسين عاماً

وبحقٍّ لقد استحظى كثير من ملوك بنى أمية كثيراً من الجوارى الروميات والصقلبيات وبذلوا لهن أفضل ما يتمنين من رغيد العيش وبعيد الآمال ، ولكنهن لم يُفسدن العنصر العربى لأنهن لم يكن بالكثرة التى تمكنهن من غلبة الرجال على أمرهم وافساد ما بينهم وبين نسائهم ، ولم يكنّ من خلابة الفارسيات ولباقتهن واحتوائهن على ألباب الرجال فى قليل ولا كثير ، ذلك الى أنهن لم يكنّ يعتمدن — كما كان الفارسيات يعتمدن — على فريق من الرجال يشدون أزرهن ، ويُنْهجون طريقهن ، ويستثمرون نفوذهن فى بيوت الخلفاء والوزراء .

لم يكن أولئك الجوارى إذاً سوى وسائل لهو وأدوات زينة ، لأنهن لم يملكن من أسباب اقتياد الرجال إلا الجمال وحده ، وللمتعة بالجمال حد ينتهى إليه ، ومهما بلغت فإن غايتها الى ابتذال وملال .

ولم يكن ذلك العهد الأموى بالأندلس عهد لذات مجترَحَة ولا حرمات مباحة ولم يظهر من الناس مَن دأبُه قذف المحصنات ، وإشاعة الفاحشة بين الناس كما كان يفعل ذلك شعراء الفرس وأدباؤهم فى بغداد لتوهين الأعراض واباحة الحرمات

وكان للدين سلطان مبين على الأعلياء والدَّهماء ، ومما زاد الروح الدينى استطارة واستفاضة تلك الشوكة العظيمة التى كان المسلمون يقابلون بها عدوان الجلالقة وغيرهم من المترصدين للعرب والإسلام .

من أجل ذلك لم يكن طريق المرأة الأندلسية شائكاً وعراً ولا ضيقاً حرجًا ، بل كان واضحاً قصداً وصراطاً قويماً ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، فلم يكن بدعاً أن تسير

لغايتها من اسعاد الأسرة ، وإصلاح البيت ، وتزكية النشء ، وأن يسير الرجل لغايته من ولاية الأمر ورياضة العمل وحياطة البلاد ، ثم يلتقيان فى معاهد العلم ومجامع الأدب .

ولقد كان النساء يخرجن إلى المسجد الجامع فى قرطبة وإلى سواه من معاهد العلم فيجلسن فى حلقات الدروس منتقبات محتشمات .

وقد ظهر من النساء عدد لا كفاء له فى فنون من العلم والأدب . وكان لهن فى تلك الحياة العاملة شأن نابه وشأو بعيد ، ومنهن الشواعر ، والكاتبات ، والمحدّثات ، والمتفقهات ، والمعلمات ، والمتطببات .

وكان نساء الخلفاء والعظماء فى غنى عن الأطباء بالطبيبات ، وعن المعلمين بالمعلمات

عصر عظمة المرأة الأندلسية

امتد عصر عظمة المرأة الأندلسية حتى جاوز القرن الرابع الى بعض ما يليه ، وفى خلال ذلك الأمد الطويل كانت المرأة مضرب المثل فى جلال الخلق وقوة النفس ووفرة العلم والبعد عن هَنات الاجتماع ؛ وعلى الرغم من مسايرتها الرجل فى طلب العلم والبلوغ فى تحصيله لا تجد فيها زهواً ولا غروراً ، ولا اندفاعاً فيما ليس من حقها من شئون الحياة ؛ وما أثر عنها فى طَوَال ذلك العهد أنها عاقرت النبيذ أو تبذلت فى مجالس الرجال كما أثر ذلك عن المرأة العراقية فى زهو الدولة العباسية . ذلك لأن الروح العربى والعصبية العربية كانا غالبين على كل مظاهر الحياة فى ذلك العهد ، حتى لقد احتفظت بطون العرب وعشائرها فى تلك البلاد بوحدتها وجامعتها كأنها لم تزل فى تهامة ونجد من أرجاء الصحراء ، فكانت قيس تقيم فى موطن وتميم فى آخر وتجيبُ فى ثالث ، وبين الرجل وعشيرته عقدة جامعة ورباط وثيق

القرن الخامس

بدأت الأندلس فى خلال المائة الخامسة تميد بأعباء الفتن السياسية ، فقد سقطت الدولة الأموية ونهضت فى أثرها دويلات المتغلبين من ملوك الطوائف وكان من شأن ذلك التمزيق الذى فرق أوصال الملك وشتت شمل الأمة أن يخمد جذوة العلم ويوهن قوة الأدب لولا أن الرعيل الأول من أولئك المتغلبين كانوا من أئمة العلم وفرسان الأدب وأعيان البيان ، فأعانوا العلماء والأدباء والشعراء بكل ما فى طوقهم من معونة وما فى خزائنهم من مال ، وتنافسوا فى استيزار الكتاب والشعراء واستزارة الأدباء والعلماء حتى أثمرت المواهب الناضرة وانحسرت العقول النيرة عن أفضل نتاج من العلم والأدب

وفى هذا العصر وما يليه تَسَامَى خيال أهل الأندلس إلى أبعد ما يتسامى اليه خيال الشاعر الساحر ، وجاءوا بالمقطعات النادرة والموشحات المبتكرة ، وبزوا أهل العراق فى وصف ما امتازت به بلادهم من مظاهر الطبيعة المشرقة ، ومسارح الحياة المتألقة فلا تجد أوصف منهم للرياض والغياض والبحار والأنهار والمنازه والملاعب والطير والهديل والسَّحَر والأصيل

وبدأت المرأة الأندلسية فى هذا العصر تنكشف وتأخذ فيما أخذ النّاس فيه من لهو ونعيم ، وجاذبت الرجل فنون المرَح وقالت ما لم يكن يقوله غيره من تغزل وتخالع وتفرُّق وتواصل ، ومناقضة ومماجنة ، ومناقلة ومداعبة ، ولكن الأخلاق بقيت فى جملتها مستمسكة فى هذا الجيل من النساء

وأول من سنت للنساء سنة الانكشاف والاستخفاف وَلاَّدة بنت المستكفى بالله سليلة بيت المُلك الأموى فى الأندلس

وكان أبوها المستكفى بقية ملوك بنى أميه ، ولم يمهله الزمن حتى غُلب على أمره

وقتل ، ومن بعده حَسَرت ولاَّدة حجابها واتخذت قصرها مهبطاً رحباً ومنتدى خصيباً يأوى اليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والشعراء ، ومن هؤلاء الوزراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ويتساجلون الشعر ويتناولون النقد ويتناقلون الحديث . وما كانت ولاَّدة بمقصرة عن السابقين المُجَلّين من هؤلاء ، بل إنها لتُعَد من مبتكرات الشعر الأندلسى الحديث . وكم من الشعراء من يحسن أن يقول قول ولادة

ودَّعَ الصبرَ محب ودعك ذائعٌ من سره ما استودعك

يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيّعك

يا أخا البــدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك

إن يطل بعدكَ ليلى فلكم بت أشكو قِصَر الليل معك

بل كم منهم من يحسن أن يقول قولها للوزير الكاتب الشاعر ابن زيدون

ترقَّب اذا جَن الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكْتَمَ للسر

وبى منك ما لوكان بالشمس لم تَلُحْ وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر

وعلى رغم ما أقدمت عليه « وَلاّدة » من هتك حجابها وتسنية أبوابها . يقول المؤرخون إنها لم تَنْزِع إلى ريبة ولم تنزلق إلى مأثمة ، وأقامت حياتها لم تتزوج ، وعُمِّرَت طويلاً ، وتوفيت فى العام الرابع والثمانين من المائة الخامسة

ولولادة صواحب نشأن على أدبها وانكشفن على سُنَتِها وأخذن فى الدعابة مثل مأخذها ، ومن هؤلاء « مهجة القرطبية » وكانت أشد اندفاعاً فى مجانة الشعر من استاذتها . وقد حاولنا أن نرى لها شعراً بريئاً لنثبته فلم نجد. على أن شعر ولادة لم يكن فى متناوَل النساء . لأن فيه فحولة وجزالة . وهو بشعر الرجال أشبه ، ولكن أستاذة شواعر الأندلس التى أوردتهن من الشعر العذب الرقيق منهلاً ندى النفحات

صفى النسمات ، هى حَمْدة — أو حمدونة — بنت زياد ، وأصلها من (وادى آش) أحد أعمال الأندلس ، وهى أسبق من ولادة عهداً وأبعد منها مدى ، وفى شعرها أنوثة كاملة وسهولة نادرة وخيال بعيد

ومن شعرها ، وكانت قد خرجت إلى النهر مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت ، قالت :

أباح الدمع أسرارى بوادى ... له فى الحسن آثار بَوَادِ
فمن نهر يطوف بكل روض ... ومن روض يرف بكل واد
ومن بين الظباء مَهاة أنس ... سبت لبي وقد ملكت فؤادى
لها لحظ تُرَقده لأمر ... وذاك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالسواد

فهذا هو الشعر النسوى الذى تسيغه نفوس النساء ويتأثرن به ويقتفين سبيله .

ومن أفضل ما يسمو اليه الخيال قولها تصف الرملة من أرباض وادى آش

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنَّى واجهتنا ... فيحميها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

فهذا الأسلوب من هذا الشعر لا تجد أرق ولا أدق ولا أنغم فى الآذان ولا أندى على الأكباد منه

ومن أبلغ ما وصلت اليه صناعة الشعر قولها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وليس لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حُماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمُ من مقلتيك وأدمعى ومن نَفَسى بالسيف والسيل والنار

ولحمدة أخت تدعى « زينب » وكانت شاعرة كاختها

ومن أستاذات هذا العصر فى الشعر مريم بنت يعقوب الأنصارى ، وكانت تغدو على بيوت أشبيليه فتعلم نساءها الشعر والأدب ، ولها بينهن منزلة محمودة لسمو أدبها وفرط حشمتها ، وكان عظماء البلد يجلونها ويدنونها لعراقة أثرها ونبالة خلقها وحسن بديهتها . وقد أرسل اليها المهدى صاحب أشبيليه دنانير فى قرطاس كتب فيه :

مالى بشكر الذى أوليتِ من قِبَل لو أننى حزت نطق اللسن فى الحِلَل
يا فذة الظرف فى هذا الزمان ويا وحيدة العصر فى الاخلاص والعمل
أشبهت مريما العذراء فى ورع وفقت خنساء فى الأشعار والمثل

فأجابته الشاعرة :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمل وقد بدرت إلى فضل ولم تُسَل
مالى بشكر الذى نظَّمت فى عنق من اللآلى وما أوليت — من قبل
لله أخلاقك الغر التى سقيت ماء الفرات فرقت رقة الغزل
من كان والده العضب المهند لم يلد من النسل غير البيض والأسل

وكان نساء غرناطة أعرف بالشعر ومعانيه وصوغه وصقله من غيرهن ، وقد ذكر صاحب نفح الطيب أنهنّ كن يُدْعَين العربيات لسيرهن على سَنَن العرب فى صفاء الشعر وفصاحة المعانى ، فبدل أن يقال هذه غرناطية كان يقال هى عربية .

ومن شواعرها الصادحات نزهون الغرناطية ، وكانت من أعذب النساء طبعاً وأروحهنّ نفساً وأرفقهن بالشعر وأضربهن للأمثال ، ولها فى مجالس الوزراء والأمراء آثَرُ منزلة وأعز مكان ، وكانت فوق ما عرفت به من رقة الطبع وسماحة الذوق من أحسن الناس بديهة وأحضرهم جواباً .

ومما حدثوا عنها أنها كانت تقرأ ذات مرة على أبى بكر المخزومى الأعمى فدخل عليهما أبو بكر الكِنْدى فقال يخاطب المخزومى : لو كنت تبصر مَن تجالسه : وأُفحم فلم يستطع أن يتم البيت الذى بدأه فقالت نزهون

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزِرَّته والغصن يمرح فى غلائله

ومن شعرها الذى أرخت لنفسها العذار فيه

لله در الليالى ما أحيسنَها وما أحيسنَ منها ليلةَ الأحد

لو كنت حاضرنا فيها وقد غَفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء ليناظرها — وكان يلبس غِفَارة صفراء على زى الفقهاء — فلما رأته قالت إنك اليوم كبقرة بنى اسرائيل ، صفراء فاقعَ لونها ، ولكن لا تسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثار ابن قزمان واندفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه فى بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به .

وفى هـذا العصر ذاع الشعر النسوىّ القَصصى ، فكان مما يألفه النساء أن يبسطن حديثهن شعراً ، وقد يكون ذلك فى حفل حاشد أو بين يدى ملك أو فى رسالة إلى أب أو صديق ، ومن أمثلة ذلك رسالة بثينه بنت المعتمد إلى أبيها .

وحديث ذلك أن المعتمد بن عباد بعد أن دفع به القضاء من قصره الأغنّ

فى أشبيلية إلى سجن ابن تاشفين فى أغمات — من أعمال فاس — سُبِيَت ابنته بثينة فيمن سبي من الجوارى و بيعت من أحد تجار أشبيلية على أنها جارية ، فوهبها التاجر ابنهُ ، فلما رأت الجِد من الأمر كشفت القناع عن نسبها الملكى ، وقالت لولد التاجر لا أحل لك إلا بعقد يجيزه أبى ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها إلى أبيها وانتظار جوابه فكان الذى كتبته هذه الأبيات

اسمع كلامى واستمع لمقالتى ... فهى السلوك بدت من الأجياد

لا تنكروا أنى سبيت وأننى ... بنت لمَلْك من بنى عباد

مَلِك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤُول للافساد

لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى من زاد

قام النفاق على أبى فى ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجت هاربة فحازنى امرؤ ... لم يأت فى إعجاله بسداد

إذ باعنى بيع العبيد فضمنى ... من صاننى إلا من الانكاد

وأرادنى لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بنى الأنجاد

ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضا ... ولأنت تنظر فى طريق رشادى

فعساك يا أبتى تعرفنى به ... إن كان ممن يُرتجى لوداد

وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والاسعاد

فلما بلغته مقالة ابنته وهو ثاو فى غياهب سجنه مطوق فى قيوده وأغلاله أدركه شئ من حسن العزاء لنجاتها ، وأشهد على نفسه بعقد زواجها ، وكتب إليها يهنئها ويتسلّى بحسن عاقبة الزمان فيها ، وكتب آخر رسالته

بُنيتى كونى به بَرَّةً ... فقد قضى الدهر باسعافه

وشبيه بهذا الأسلوب من الشعر النسوى الأندلسى شكوى الشاعرة الشِّلْبِيَة

إلى السلطان يعقوب المنصور صاحب غرناطة من عماله على بلدها ، فقد كتبت هذه الشكوى وألقتها على مُصَلَّى المنصور يوم الجمعة ، فلما قضى صلاته فضها وقرأها فاذا فيها

قد آن أن تبكى العيون الآبية ولقد أرى أن الحجارة باكية

يا قاصد المصر الذى يُرجى به —إن قدّر الرحمن— رفع كراهية

ناد الأمير إذا وقفت ببابه يا راعياً إن الرعية فانية

أرسلتها هملاً ولا مرعى لها وتركتها نهب السباع العادية

شِلْبٌ كَلاَ شِلبٍ وكانت جنة فأعادها الطاغون ناراً حامية

حافوا وما خافوا عقوبة ربهم والله لا تخفى عليه خافية

فأنصف المرأة بعدله ووصلها بجزيل ماله

وحديث الأدب النسوىّ فى هذا العصر حديث شيّق اليف ، واذا قلت لك أن هناك استاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة الأدب ويروينهن الشعر فلا تظنّ هؤلاء على قدر محدود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأفذاذ رجاله على سواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخريج ، ومن أمثلة هؤلاء الشاعرة العروضية إحدى فتيات بَلَنْسية فقد تلقت النحو واللغة على الامام أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون، ثم فاقته فيهما وبزت علماء عصرها فى العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والأمالى للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً ، وقد قرأهما عليها العالم يوسف بن نجاح وأخذ عنها علم العروض .

ولقد يمتد بنا الطريق اذا استوفينا جانب الأدب من حياة المرأة الأندلسية وهو أنضر جوانبها وأبهج حلاها فى هذا العصر ، فحسبنا أن ندل عليه ونكتفى بهذا الطرف اليسير من حديثه .

ولقد حدثتك حديث الْخُلُق النسوى في هذا العصر وأنه بقى فى جملته مستمسكا مستقيماً وإن كانت عوامل الضعف لبثت تغالبه من كل جانب وتحيط به من كل سبيل .

ومهّد انقسام الأندلس وقيام ملوك الطوائف للعدو المترصد سبيل الظفر بالمنقسمين ، وبدأت النازلة الفادحة والخطب الجليل يهويان على البلاد فى أخريات هذا القرن منذ استباح الاذفونش طليطلة من صاحبها ابن ذى النون عام ٤٧٨ ، ومن هنالك أخذ العدو المتغلب يجد فى شططه وأخذ سلك البلاد ينتثر من وَسَطه كما قال الشاعر ابن العسال .

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسَط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف المقام مع الحياة فى سَفَط

وكذلك بدأت دعائم الْخُلُق تهتز وأنشأ صرح الحياة يميد

بعد القرن الخامس

ألا مسعد منجدٌ ذو فِطَن ... يُبَكِّى بدمع معين هَتِن
جزيرةُ أندلس قَدْ سَطَت ... عليها غوائل حقد الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثى من الشعر ما قد وهن
ويبكى اليتامى ويبكى الأيامى ... ويحكى الحمام ذوات الشجن
ويشكو الى الله شكوى شج ... ويدعوه فى السِّر ثم العلن
وكانت رباطاً لأهل الهدى ... فعادت مناطا لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى ... فصارت ملاذاً لمن لم يَدِنْ
وكانت شَجًى فى حلوق العدى ... فأضحت لهم ما لها محتجن

ذلك بعض ما رثيت به الأندلس فى القرن السادس الهجرى أى قبل أن يحل بها القضاء الأخير بقرنين كاملين ، فقد أخذ العدو يوغل فى قلب البلاد وأخذ أولئك المتملكون يلقون اليه بالمودة ، ويتقدمون اليه بالجزى ، ويستعين به بعضهم على بعض ، ومن لم يستعن به استصرخ المغيرين من ملوك فاس ، وترك أهلُ الأندلس تلك القوى المتدافعة تتناجز على البلاد وراحوا يلهون ويلعبون ، ويشربون ويطربون ، ويسحبون فى مضمار الخلاعة أرسانا ، ويَسْتَبِقون فى ميدان البَطَالة فرسانًا ، واستشرفوا الى الجوارى الروميات والمهاجرات المغربيات يتسرّونهن ويستولدونهن ، وغادروا المرأة الأندلسية تندفع فيما هم مندفعون ، وتشرب بالكأس التى يشربون ، فالتاثت الأخلاق ، واضطربت الأعراق ، وفترت الحمية ، وضاع الحِفَاظ .

وبدءوا يتشبهون بالفرنجة فيما أمكنهم أن يتشبهوا به ، وماذا يملك الضعيف الذليل من التشبه بالقوى العزيز ؟ ليس إلا المظاهر الجذابة من زى يبسطه عليه ، أو كلمات من لغته يتقرب بها اليه ، أو إنحاء بالطعن على أهل ملته وعشيرته ، أو لجاج فى البراءة من آداب دينه وأمته ، فأما الدأب فى العمل ، والامعان فى الثبات ، والتضحية فى الواجب ، وفناء الواحد فى عز الجماعة ، والطاعة فى غير ذل ، والبذل فى غير رياء ، فذلك ما لا يملك الضعيف أن يتشبه بالقوى فيه . لأن النفسَ واهنة ، والعقل مضطرب ، والقلب رخو مريض . وكذلك فعل الأندلسيون . فقد غلَوْا فى التشبه بالفرنج فى عامــة مظاهرهم ، فلبسوا برانسَهم ، واعتمروا قلانسهم ، ومضغوا ألفاظهم ، وتزوجوا الدّنيّات من نسائهم .

وأول من سن طريق الغلو فى اقتفاء الهيّن القريب من مظاهر الفرنجة محمد ابن سعد بن مردنيش الجذامى أمير شرقىّ الأندلس فى منتصف القرن السادس ،

وذلك ما يقوله عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه « الاحاطة فى أخبار غرناطة »

وآثر « ابن مردنيش » زى النصارى من الملابس والسلاح واللُّجُم والسروج، وكلِف بلسانهم، وألجأه الخروج عن الجماعة والانفراد بنفسه الى الاحتماء بالنصارى ومصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم، وصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك قشتالة على أخرى، فكان يبذل لهم فى السنة خمسين ألفاً من المثاقيل، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات ! ! وحانات للخمور ! وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم. فعظمت فى بلاده المغارم وثقلت؛ وأما رسوم الأعراس والملاهى فحالاتها عجيبة.

حدث بعض المؤرخين عن الثقة قال : كنت بجَيّان مع الوزير أبى جعفر الوقشى فوصل اليه رجل من أهل مُرْسِية كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش وعن سيرته. فقال الرجل أخبرك بما رأيت من جَوْر عماله وظلمهم، وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن كان له بنظر شاطبة ضُيَيْعة يعيش بها، وكان لازمها أكثر من فائدتها، فأعطى لازمها حتى افتقر، وفر الى مرسية، وكان أمر بن مردنيش أنّ من فر من الرعية أمام العدو أخذ ماله المخزن، قال الرجل فلما رحلت الى مرسية فارًّا عن وطنى خدمت الناس فى البنيان، فاجتمع لى مثقالان سعديان، فبينما أنا أمشى فى السوق واذا بقوم من أهل بلدى شاطبة. فسألتهم عن أولادى وزوجتى، فقالوا إنهم فى عافية، ففرحت فرحاً عظيماً وسألتهم عن الضييعة، فقالوا إنها باقية عند أولادك. فقلت لهم عسى أن تبيتوا عندى الليلة، فاشتريت لحماً وشراباً وضربنا دفًّا، فلما كان عند الصباح اذا بنقر عنيف بالباب،

فقلت من أنت ! قال أنا الطرقون الذى بيده قُبالة اللهو ، وهى متفقة بيدى ، وأنتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذى عملت ، فقلت والله ما كان لى عرس فأخذت وسجنت حتى افتديت بمثقال من الذى خدمت به وجئت الى الدار فقيل له ان فلاناً وصل من شاطبة الساعة فمشيت لأسأله عن الدار وعن قرابتى وعرفته بالأمر الذى طرأ علىّ وبكيت طول ليلتى وبكى معى، فلما كان من الغد اذا بناقر بالباب ، فخرجت فاذا أنا برجل فقال أنا صاحب المواريث أُعلمنا أنكم بكيتم البارحة وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غنِيّ وأخذتم كل ما ترك ، فقلت والله ما بكيت الا نفسى ، فكذبنى وحملنى الى السجن فدفعت المثقال الثانى »

ذلك بعض ما يحدث فى عهد التياث الحكم واضطرابه وانحراف الأمر وانقلابه، على أن ما أصاب البلاد من فتنة ناشبة وشر وبيل لم يثن هؤلاء الناس عن الاندفاع فى اللهو الى قرار الهاوية

وأصبح الاندماج فى الفرنج بالمظاهر والعادات وبالملق والرياء سنة مسلوكة وطبعاً مألوفاً عند أهل الأندلس ، ومن العجب أن عالماً ضليعاً كعزيز بن خطاب يُوَلَّى مُلك مُرسِية لعلمه وفضله ، فاذا جاءه الخطباء ليخطبوا له بالملك استمع أقوالهم حاسر الرأس كما كان يعمل ملوك الفرنج .

وكان ابن هود ملك الأندلس يسير فى أشتات بلاده حاسر الرأس ، وعلى هذا السبيل كان بنو الأحمر ينهجون .

وكان علماء الأندلس يرخون ذوائبهم ، ولم يسمح لغيرهم أن يفعل ذلك سيراً على سنة الفرنج فى رجال الأدب والفنون منهم .

ولبس النساء المناطق الأسبانولية ! واعتمرن القبعات الاسبانيولية ! وخرَج الفتيات حواسر الرءوس كواشف الصدور على مثال الأسبان ، وفى كثير من الصور

التى خلفها الأندلسيون منقورة فى الجدران أو منقوشة فى الزجاج أو مرقومة على الثياب أو محفوظة فى الكتب والرقاع ما يدل على انسياق المرأة الأندلسية فى مساق الأسبانية وانخلاعها عن تقاليد السلف الصالح من الأمهات الأندلسيات . ورغم ما تورطت فيه امرأة هذا العصر من تهور واندفاع لم تكن بنجوة من العلم والأدب ، فقد نالت منهما أكثر مما نالت فى عصورها السالفة ، ولكن ويل للأمة من المرأة العالمة التى لا خلق لها ولا دين .

وأستاذة الشواعر فى العصر الأندلسى الأخير حفصة بنت الحاج الركونية ، وهى إحدى شريفات غرناطة الظاهرات بوفر المال وفرط الجمال وما تردان به المجالس من حسن المساجلة ولهو الحديث . ولذلك لم يكن بدعاً أن يغدو فى أثرها كثير من نساء هذا العصر ، وكانت نشأتها فى القرن السادس وعمرت الى منتهاه

وكانت حفصة فى شعرها متدفعة غير متجملة ولا محتشمة ، لأنها إنما تحكى صورة هذا العصر وتنزع عن غايته ، وكانت تذيع هذا الشعر فيرويه الناس عنها وهم بها معجبون

ومن شعرها ما كتبته الى فتى اشتهرت به

أزورك أم تزور فان قلبى ... إلى ما تشتهى أبداً يميل
فثغرى مَورد عذب زلال ... وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أمّلت أَن تظما وتضحى ... إذا وافى اليك بى المقيل
فعجّل بالجواب فما جميل ... إباؤك عن بثينة يا جميل

ومن شعرها وقد أرسلته الى الأمير أبى سعيد فى مجلس أنسه

زائر قد أتى بجيـــد الغزال ... مطلع تحت جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت ... ورضاب يفوق بنت الدوالى

يفضح الوردَ ما حوى منه خد   وكذا الثغر فاضح للآلى
ما ترى فى دخوله بعد إذن   أو تراه لعارض فى انفصال

ومن شعرها

سلام يُفتّح زهر الكما   م وينطق بالشدو ورق الغصون
على نازح قد ثوى فى الحشا   وإن كان تحرم منه الجفون
فلا تحسبوا العبـــد ينساكم   فذلك والله ما لا يكون

ومِمَّا نسب اليها

أغار عليك من عينىْ رقيبى   ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنى خبأتك فى عيونى   الى يوم القيامة ما كفانى

وعلى سَنَن ما أسلفت لك سارت المرأة الأندلسية بعد القرن السادس جامحة النفس مخلوعة العذار ، ووهنت منها قوة الدين وخَفَرُ الحياء ، وهدمت ركن البيت ومزقت آصرة الأسرة ، وهى الغارس والأمة الغَرس ، والبانى والأمة البناء ، فاذا صرفها اللهو واللعب عما وكلها الله به من حياطة خَلقه ورعاية حقه فما هى الا نهلة بعد نهلة حتى ينتقض البناء ، ويستحكم البلاء وترتفع صيحة القضاء ، وتعصف عاصفة الفناء « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وكذلك حقت كلمة الله على أهل الأندلس حين ائتمنهم الله على أرضه فلم يرعوا أمانته ، واسترعاهم دينه فلم يوفوه رعايته ، وأحلهم دار النعمة فابطرتهم ، وسوغ لهم صبابة الأمل فاسكرتهم ، وكان ما أصابهم عبرة العبر ومُثلةَ المُثلات ، فقد ظهر عليهم العدو المستبيح فمزق رجالهم واستعبد نساءهم وصرع بين أعينهم أطفالهم

فلو تراهم حيارى لا دليـــل لهم   عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت نساهم عنـــد بيعهم   لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهما　　كما تُفَرّق أرواح وأبدان
وطَفلةٍ مثل حسن الشمس اذ طلعت　　كأنمــا هى ياقوت ومَرجان
يقودها العِلجُ للمكروه مكرهة　　والعين باكية والقلب حران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد　　إن كان فى القلب إسلام وإيمان

أثارة من أدب النساء فى الأندلس

١ — كتبت ولّادة بنت المستكفى الى ابن زيدون

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق　　سبيل فيشكو كل صب بما لقى
تمر الليالى لا أرى البين ينقضى　　ولا الصبر من رق التشوق معتقى
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا　　بكل سكوب هاطل الودق مغدق

٢ — للشاعرة الغسانية البجانية — وهى من شواعر المائة الرابعة :

عهدتهمُ والعيش فى ظل وصلهم　　أنيق وروض الوصل أخضر فينان
ليالىَ سعد ، لا يُخاف على الهوى　　عتاب. ولا يُخشى على الوصل هجران

٣ — سألت امرأة من شريفات غرناطه حفصة الركونية تذكاراً تكتبه بخطها فكتبت اليها

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم　　غضى جفونك عما خطه قلمى
تصفحيه بلحظ الود منعمة　　لا تحفلى بردئ الخط والكلم

٤ — كتبت حسانة التميمية الى الحَكَم بن الناصر

أنت الامام الذى انقاد الأنام له　　وملكته مقاليدَ النُّهَى الأمم
لا شئ أخشى اذا ما كنت لى كنفا　　آوى اليــه ولا يعرونىَ العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً　　حتى تذل اليك العُرب والعجم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ووظف لها عطاء كريماً وكتب الى عاملة على (البيرة) — من أعمال الأندلس — فجهزها بجهاز حسن

٥ — وكان الحكم قد كتب الى والى البيرة بتحرير أملاكها وردها اليها — ولا نعلم كيف نُزِعت منها — واتفق أن عوجل الحكم بالموت فلم يقض الوالى لها بشئ فلما طال مِطاله لها ذهبت الى ابنه الخليفة عبد الرحمن فلما مُثلت بين يديه انتسبت اليه ، فعرفها وعرف أباها ثم أنشدت

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى … على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعى انه خير جابر … ويمنعنى من ذى الظلامة جابر
فانى وأبنائى بقبضة كفه … كذى الريش أضحى فى مخالب كاسر
جدير لمثلى أن يقال مَرُوعةٌ … لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاه الحيا ، لو كان حياً لما اعتدى … علىَّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يمناه جابر … لقد سام بالأملاك احدى الكبائر

ثم بسطت أمرها وأرته خط أبيه فقبله وقال : لقد تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأى الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك ووقع لها بمثل توقيع والده ، وأجازها بجائزة كريمة فشكرت له صنيعه بقصيدة جاء فيها :

ابن الهشامين خير الناس مأثرة … وخير منتجَع يوماً لرُوّاد
ان هز يوم الوغى أثناء صعدته … روَّى أنابيبها من صِرف فرصاد
قل للامام أيا خير الورى نسباً … مقابلا بين آباء وأجداد
جوَّدت طبعى ولم ترض الظلامة لى … نهاك فضل ثناء رائح غاد
فان أقمتُ ففى نعماك عاطفة … وان رحلت فقد زودتنى زادى

٥ — لأم العَلاء بنت يوسف الحِجَارِيّة[١] — من شواعر المائة الخامسة

كل ما يصدر منكم حسنُ   وبعلياكمْ تحلّى الزمن
تعطِف العين على منظركم   وبذِكراكم تَلَذّ الأذن
من يعش دونكمُ فى عمره   فهو فى نيل الأمانى يغبن

٦ — وخطبها رجل أشيب فكتبت اليه :

الشيب لا يُخدَع فيه الصبي   بحيلة فاسمع الى نصحى
فلا تكن أجهل مَن فى الورى   يبيت فى الجهل كما يضحى

٧ — وقالت تعتذر

افهم مطارح أقوالى وما حكمت   به الشواهد واعذرنى ولا تلمِ
ولا تكلنى إلى عذر أبيّنه   شر المعاذير ما يحتاج للكلم
وكل ما خلته من زلة فبما   أصبحت فى ثقة من ذلك الكرم

٨ — لأم السعد بنت عصام الحِمْيرية القرطبية

آخِ الرجال من الابا   عِدِ والأقاربَ لا تقارب
إنّ الأقارب كالعقا   رب أو أشد من العقارب

٩ — للسيدة أمَة العزيز

لحاظكمْ تجرحنا فى الحشا   ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا   فما الذى أوجب جرح الصدود

١٠ — حكى الوزير أبو المغيرة بن حزم قال :

نادمت يوماً المنصور بن أبى عامر فى مُنية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير، وهى جامعة بين روضة وغدير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العشىّ ، ورفرف غراب

---

(١) نسبة الى وادى الحجارة من اعمال الاندلس

الغروب الدجوجىّ ، وأسبل الليل جنحه ، وتقلد السماكُ رمحه ، وهم النسر بالطيران ، وعام فى الأفق زورق الزّبرقان[١] ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا مُلاء الارتياح ، وللدجن فوقنا مُلاء مضروب ، ففنتنا عند ذلك جارية تسمى أُنس القلوب ، وقالت

قدم الليل عنـد ستر النهار وبدا البدر مثل نصف السوار
فكأن النهار صفحة خدّ وكأن الظلام خط عِذَار
وكأن الكؤوس جامد ماء وكأنّ المدام ذائب نار
نظرى قد جنى علىّ ذنوباً كيف مما جنته عينى اعتذارى
يا لقومى تعجبوا من غزال جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى اليـه سبيل فأقضّى من الهوى أوطارى

١١ — كتب أبو عامر بن نيق الى هند جارية أبى محمد عبد الله بن مَسلمة الشاطبي، يدعوها بهذين البيتين .

يا هند هل لك فى زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نغمات عودك فى الثقيل الأول

فكتبت فى ظهر رقعة

يا سيدا حاز العلا عن سادة شم الأنوف من الطراز الأول
حسبى من الاسراع نحوك أننى كنت الجواب مع الرسول المقبل

١٢ — كان عباد المعتضد كلفا بجاريته العَبّادية فسهر ليلة وهى نائمة فقال

تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

فانتبهت له وأجابته

لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشعر

---

(١) الزبرقان البدر

١٣ — لحفصة الركونية تذم عبيدها

يا رب إنى من عبيدى على   جمر الغضا ما فيهمُ من نجيب
إما جهول أبلهٌ متعبٌ   أو فطن من كيده لا يجيب

١٤ — لزينب المُرِّيّة

يأيها الراكب الغادى لِطِيّتِهِ   عَرِّج انبيك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم   إلاّ ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبي رضاه وأنى فى مسرته   ووده آخرَ الأيام أجتهد

١٥ — دعا أمير المؤمنين الناصر بحجامه ليفصده ، واتُّخِذَت لذلك الأهبة فى البهو الكبير من قصر الزهراء ، فحين تقدم الحجام من سيده أطل عليه زرزور من حديقة القصر فتغنى بهذين البيتين :

أيها الفاصد رفقاً   بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقاً   فيه محيا العالمينا

فنظر الناصر إلى الطائر وأصغى اليه وقد ملكه العجَب والاعجاب وسأل عمن أوحى إليه ذلك الوحى البديع فقيل إنها السيدة الجليلة مرجانة زوج أمير المؤمنين وأم ولى عهده فضوعف سروره واعجابه .

أما بعد فتلك طائفة من الأدب النسوى بالأندلس ؛ وهو على ما به من ظرف ورقة لم يبلغ مبلغ نظيره فى العراق ، لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية فى البادية، والجارية الفارسية فى الحاضرة ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ، فالمرأة البدوية كانت كافضل النساء صفاء فى الطبع ، ونقاء فى النفس ، وسمواً فى الخاطر وجلالاً فى الغرض ، وروعة فى الأسلوب ، وكانت الجارية الفارسية على

ما علمت مَثار الفتنة والسحر فى الغناء والشعر ، وكان للناس فى العراق من هذين الموردين مَعِين غدِق ، وروض خصيب ، وهما من وسائل الرقة التى امتزجت بالأدب العربى فى العراق .

أما المرأة الأندلسية فمع مجاذبتها للرجل كثيراً من أطراف العلم والأدب لم تأت منه بما يعلو عن مألوف الكلام الا قليلاً ، لأن للأدب النسوى جمالاً خاصاً تنقله المرأة عن المرأة لا عن الرجل ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة فى العراق عنيت برواية الأدب النسوى فى البادية وأخذت كفايتها منه وعمدت الى ما أخذت فصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء النعيم لأتت بأطيب الثمرات وأنداها على القلوب والأكباد

ولا أعلم كيف غفل متأدبو الأندلس ومؤلفوهم عن استقصاء شعر نسائهم والعناية بتقييده ، فهم يسمون وَلّادة بنت المستكفى : عُلَية الأندلس ، ويدْعون حمدة بنت زياد خنساء المغرب وهم مع ذلك لا يذكرون لكليهما إلا القليل المحدود من الشعر الذى أثارته مناسبة أو قيدته حادثة ، وقد لا يكون هذا من أفضل ما قالت الشاعرة ، بل قد يكون فوق ذلك غَثًّا تافهاً لا شأن له ، فى حين أنهم حين دعوا ابن هانىء المغربى متنبىء الغرب وابن خفاجة الأندلسى صَنوبرى الأندلس ذكروا لهما ما جلّ ودق من شعرهما حتى لم يعُد شىء منه خافياً عن أحد ، والعجب أن هذا القليل المحدود الذى نقل عن نساء الأندلس كان يتناوله مؤلفو القوم بعضهم عن بعض ، فليس هناك تبسط فى النقل ولا استفاضة فى البحث عن شعر النساء ، فهل لم تأت « خنساء المغرب » بأكثر من بضعة عشر بيتاً من الشعر أكثرها مداعبات ومطارحات ، وهل لم تأت « علية الأندلس » بأكثر من عشرين بيتاً بعضها منسوب لغيرها ! أقول ولعل ذلك لأن أكثر الكتب التى

وصلتنا عن حياة الأندلس ألف بعد سقوط ذلك البلد العظيم ، وألف فى بلاد خفى فيها أدب المرأة عن منال الأقلام ، فلم يحفل كتابها بها ، ولعلنا حين نجدّ فى البحث عن ذخائر الكتب المودعة قصر الاسكوريال فى « مدريد » نجد منها كثيراً مما كتبه الأندلسيون عن أنفسهم وصوروا فيه حقيقة شأنهم ومثال حضارتهم فذلك أشفى للنفس وأروى للحقيقة ، وعسى أن نصل قريباً بعون الله وتوفيقه إلى تلك الغاية المنشودة فنكون قد سددنا ثغرة من الأدب العربى لا تزال حتى اليوم عميقة الأثر بعيدة القرار . والله ولى التوفيق .

المرأة المغربية

وحسبنا فى هذا الجزء من الكتاب أن نتكلم عن المرأة فى المغرب الأقصى . أما المغرب الأدنى فحديث المرأة فيه طويل مستفيض لا يتسع له هـذا الجزء ، وموعدنا به الجزء الرابع مع المرأة المصرية ، لأن بين نساء هذا القطر من بلاد المغرب وبين نساء مصر البدويات صلة الجوار وعقدة النسب وألفة الطباع والعادات .

واذا تحدثنا عن المغرب الأقصى فانما نتحدث عن قطر كان فيما سلف من الدهر لا تجف دماؤه المتفجرة ولا تخمد نيرانه المضطرمة ، له فى كل آونة عرش يقوم ومصرع يترصد ، قد اختلف فيه كل ما فيه اختلافاً بيناً ، ففيه البربر والعرب ، وفيه الخوارج والرافضة ، وفيه الواتر والموتور ، وفيه الدخيل والأصيل ، ذلك شأنه وتلك حاله منذ بسط الاسلام ظله عليه .

وكان شأن المرأة فى عامة تلك البلاد كشأنها فى كل الشعوب المستبسلة المتبدية ، لها قوة عاملة وصفة مستقلة وحياة ظاهرة ، وما كان يَضِير الرجل هنالك أن ينتسب إلى أمه . ومن الذين ظهروا فى هذه البلاد ممن انتسبوا إلى أمهاتهم ابن غانية القائد المتغلب المتملك ، وابن عائشة العالم الشاعر ، وبنو « سوط النساء » القادة الأبطال . وما كان عجيباً أن تسود المرأة وتحكم ، وقديماً تكلم ابن خلدون عن امرأة تسمى « شمس » كان لها عشرة أبناء استفحل أمرهم وتفاقم سلطانهم وألقوا اليها أزمة الأمر وروّضوا لها حكم البلاد فلم يكن هنالك دفع أو استنكار .

وكانت تأنف ويؤنف لها وتغار ويغار عليها إلى أن تؤثر ورد الموت على الذل والهوان . ومما رواه ابن خلدون أن جيش بنى مرين قصد إلى السلطان أبى زيان ابن عثمان وأخذ ينتقص أطراف بلاده ولم يقو جيشه عليه ، قال ابن خلدون فبينا

السلطان وأخوه أبو حمو جالسان فى بعض خاصتهما دخلت دعد قهرمانة القصر وقالت : يقول لكم حظايا قصركم و بنات زيّان حُرمكم : ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأَسَفَّ عدوكم لالتهامكم ولم يبق إلاّ فواق ناقة لمصارعكم ، فأريحونا معرة السبي وقرّبونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة فى الذل عذاب والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو إلى أخيه السلطان فقال قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن؟ فقال ياموسى أرجئنى ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا . فقال إلى تخرج مع قومنا إلى عدونا فتستميت ويقضى الله ما شاء ! فغضب أبو حمو وأنكر عليه تأخير ذلك وقال انما نحن والله نتربص المعرة بهن و بأنفسنا . وقام عنه مغضباً وأجهش السلطان بالبكاء فبينما القوم فى مجلسهم هذا دخل حَرَسى فقال « إن السلطان يوسف بن يعقوب — ملك بنى مرين — قتل الساعة . وبمقتله انفض جيشه وذهب عن أبى زيان وعن قومه ما كانوا فيه من خوف واشفاق . ولولا ذلك لذبحوا نساءهم وبناتهم وحظاياهم بقيا على العرض وأنفة من العار .

ومن أعجب ما يؤثر من غضبة الشعب للمرأة وأنفته لها وثورته من أجلها ، أن السلطان عبد الحق بن أبى سعيد المرينى لما لم يجد غناءً فى وزرائه إستعان برجلين من اليهود ، فكانت رياستهما محنة على الأمة و بلاء على العباد ، فلم يدعا وسيلة من الخسف والأذى فى الأرواح والأموال إلاّ اتخذاها فى غير حرج ولا هوادة ، وصبرت الأمة لهذه النازلة وراضت نفوسها على احتمال تلك الكارثة وكان احتمالها بالغاً وصبرها جميلاً ، كان ذلك حتى ذاع فى البلاد أن أحد اليهوديين قبض على امرأة شريفة وأمر بضربها بين يديه ! وهنا اشتعلت النار الخابية واستطارت النفوس الوادعة وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى، وهنالك ائتمروا فيما بينهم على الفتك باليهود وثل

عرش المستعين بهم وولوا من بينهم أحد أشرافهم وبايعوه على الثبات معه حتى الموت وأحاطوا باليهود فأفنوهم واقتسموا أموالهم واستعان عبد الحق بجنده فتنكروا له وخالفوا عليه ، وقتل اليهودى الضارب طعناً بالرمح بين يديه ، وسيق هو إلى فاس وطيف به مشهراً فى أحيائها وأزقتها وتكاثرت عليه الجموع تريد أن تفترسه ثم قدم إلى مصرعه فقتل وانتهى بموته عهد وانقرض بنهايته ملك وسلطان .

الأسرة المتنبئة

لم يكن أهل المغرب الأقصى سراعاً إلى الاسلام حين دعوا اليه فلم يسلموا إلا بعد لأى خيفة من السيف ، ثم ارتد جمهورهم عن الدين الحنيف ، ثم أثابوا أخيراً اليه ، وفى عهد تلك الفتنة المضطربة نهض رجل فى أحد أعمال فاس يدعى طريفا أبا صبيح فادعى النبوة ، واقتبس دينه من مآرب الناس وشهواتهم ، فاتبعه جمهور من الغوغاء ، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان ، ثم أعقبه ابنه فزاد على ما قال أبوه سخفاً من القول دعاه قرآنا وجعل من سوره سورة الديك وسورة الحُمُر وأمثال تلك الأضاحيك ، وعلى ذلك السَّنن تتابع سلالة ذلك الرجل ، فليس منهم إلاّ من زعم أنه نبى يوحَى اليه حتى انتهى أمرهم إلى أبى غفير محمد بن معاذ ابن اليسع ابن طريف فازداد خطره واستفحل أمره وأباح للرجل أن يتزوج بمن وصلت اليه يده من النساء بالغاً ما بلغ ، وأخذ يبث شياطينه فى البلاد يقتلون رجالها ويسبون نساءها ، وشأنه فى ذلك شأن القرامطة ، وهؤلاء وأولئك كانوا يتبعون سيرة آل فرعون فى بنى اسرائيل من قتل الرجال واستحياء النساء ، وفى انسياق الغوغاء فى مساق أبى غفير يقول بعض شعراء فاس

قفى قبل التفرق واخبرينا وقولى واخبرى خبراً يقينا
وهذى أمة هلكوا وضلوا وغاروا لا سُقوا مما سقينا
يقولون النبي أبو غفير فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت على آثار خيلهم رنينا
ستعلم أهل تامسنا إذا ما أتوا يوم القيامة مُقْطَعينا
هنالك يونس وبنو أبيه يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعا وأربعين، واشتدت نكايته بالبربر حتى غلب على قطر كبير من البلاد وتملكه وأقام فى هذا الملك تسعة وعشرين عاماً. ومن بعده جاء ابنه أبو الأنصار فتأثّر سنة أبيه وازداد من إراقة الدماء. واستباحة النساء، وعظمت هيبته واشتد سلطانه، ودانت له قبائل المغرب. وكذلك كان ابنه من بعده أبو منصور عيسى فملك البلاد وجاءه ملوكها يسجدون عنوة له

وقد وقف مسلمو المغرب حيال تلك الطائفة المبيحة موقف مسلمى المشرق من القرامطة، فحاربهم الأدارسة والأموية والشيعة واجتازجند المنصور بن أبى عامر البحر إلى بلاد المغرب فلم يغنوا شيئاً، ثم نهد لقتالهم بلكين بن زيرى فى قبائل صنهاجة فقهر أبا منصور وقتله وأفنى جيشه، وأجاز المنصور بن أبى عامر للمرة الثانية جنده فأثخنوا فيهم قتلاً وسبياً. ولم ينتـه أمر هؤلاء المفسدين إلاّ فى أخريات المائة الخامسة، وبذلك يكون مدى أمرهم قرابة أربعة قرون. وهذا فيما نعلم أطول مدى أقامته أسرة متغلبة مبيحة

الحالة الاجتماعية
للمرأة المغربية

يأتلف أهل المغرب الأقصى من شعوب ثلاثة : البربر والعرب واليهود ، وأكثر ما يتولى اليهود من العمل أشتات المهن من تجارة وصناعة، وليس لهم فيما وراء ذلك شأن عظيم ، غير أن أهل المغرب يذكرونهم كلما ناب خطب أو شبت فتنة أو أغير عليهم من حيث لا يعلمون

ويقوم العرب والبربر على نظام القبائل والبطون ، وكان للمرأة العربية منذ الفتح الاسلامى نصيب اختها فى بلاد العرب من القيام على الأسرة والاتصال بالحياة العامة على نحو ما أسلفناه فى الجزءين الأولين من هذا الكتاب ، ثم أخذت المدنية الأندلسيّة تسرى على قَدَر فى جنبات هذا الاقليم ، وأخذ ملوك الدول الاسلامية المتتابعة يَنْهَجون المدن وينشئون القصور وينقلون اليها الكثير الموفور من مباهج الحضارة ومناعمها ، واجتلبوا الجوارى من الأندلس والعراق ، وحجزت طبقات السَّراة والاشراف نساءها فى دور الحُرَم وأقاموا على خدمتهن وحجابتهن الخصيان من أرقاء الصقالبة ، وقد كان هؤلاء سبباً فى القضاء على دولة يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق حين استفحل أمرهم فى قصره ، فقدكان السلطان يخلطهم بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ، ثم رابته ريبة فى بعضهم فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير استاذهم وحجب سائرهم ، فراعهم ذلك وأفزعهم ، فبيتوا له الشر ودبروا له السوء حتى استأذن عليه واحد منهم يدعى سعادة وهو مضطجع فى فراشه فاما أنس الغِرّة منه وثب عليه وطعنه طعنات أردته قتيلاً

ودرج أوساط أهل المدن على تلك النسنة من إرخاء الحجاب حتى أصبح من مسنون عاداتهم ألاّ تخرج المرأة من دارها إذا أعوزها الخروج إلا فى جنح الليل

وإذا خرجت قنّعت سائر وجهها فلا يظهر منه شيء ، ولكنّ الحال أخذت تتبدل رويداً فى هذا الجيل ، وبدأ نسوة هذا العصر يحسرن عن هذا الضرب من الحجاب فهن يخرجن الآن فى وضح النهار ، ويتركن ما كثف من الحجاب إلى ما شفّ منه ، ويأخذن مأخذ نساء المشرق الأدنى من الثورة على ما كان عليه أمهاتهن من عزلة واحتجاز . على أن ذلك لم يجاوز أهل المدن ، أما نسوة البادية فقد بقى لهن اكثر ما كان لأمهاتهن من فطرة وطبع وأخلاق

حالتها الفكرية

لم تكن المرأة المغربية بنجوة عما كان عليه الرجل من علم محدود ، فقد جاذبته أسباب ذلك العلم وظهرت فى بعض نواحيه ، ويتحدث أهل المغرب عن كثير من النساء تناولن الشعر والنثر وان لم يكن فيما تناولنه شيء يستحق التدوين .

وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصى حفظ القرآن الكريم بقراآته جميعاً ورواية الحديث ودرس الفقه والأصول وما إلى هذه من علوم الدين ويذكر أهل ذلك الاقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جمعن إلى النفاذ فى ذلك كله حفظ مدونة الامام مالك بن أنس رضى الله عنه وهى أكبر المطوّلات الجامعة فى الحديث والفقه

وفى إقليم شنقيط حيث البداوةُ التى لا تشوبها كلفة العيش ولا رفاهة الحياة يسير النساء فى مساق الرجال من درس علوم الدين وقراآت القرآن الكريم . وهنالك تعقد المحافل لامتحان الحفاظ الذين حفظوا الكتاب الكريم بمختلف قراآته فيجلس أشياخ القراء صفاً ممدوداً ويجلس الحافظ أمامهم وظهرُهُ اليهم ويتلو ما يطلبون تلاوته منه مرويًّا بما يقترحون عليه من الروايات . ولا بأس أن يكون فى هذا المحفل طائفة من النساء .

واليوم يقف التعليم الفرنسى فى بلاد المغرب الأقصى قبالة التعليم الدينى ، ولكل من التعليمين خصوم وأشياع . وقد بث الفرنسيون مدارسهم فى عامة مدن المغرب الأقصى فأقبل عليها المحدَثون إقبالاً عظيماً وصارعت اللغتان الفرنسية والاسبانية اللغة العربية فى المدن الساحلية حتى إنك تطوف بأرجاء طنجة فلا تكاد تسمع كلمة عربية خالصة من رجل أو امرأة

واليوم تجد فى تلك البلاد طائفة ظاهرة من النسوة اللاتى تخرجن فى العلوم الدينية وأخرى من اللواتى تخرجن فى المدارس الفرنسية

ومن الطائفة الأولى :

السيدة الشريفة فاطمة الزهراء ابنة السيد محمد بن احمد الادريسى

تحفظ القرآن الكريم بقراآته ، وتحفظ كثيراً من كتب الفقه والحديث ، ولها فوق ذلك صلة وثيقة بالعلوم العصرية ، ولم تبارح دار أبيها قط ، وتخرجت على أبيها وجدها

السيدة عائشة الشنقيطية

تخرجت فى شنقيط ، وانتقلت إلى مراكش ، ولها بها منزلة طيبة ومقام محمود وقد برعت فى العلوم الدينية والعربية وحفظت سبعمائة حديث وأخرجت بعض الكتب والرسائل

ومن الطائفة الثانية :

السيدة زينب الغرنيطية

من سلالة أندلسية ، تخرجت فى المدرسة الفرنسية بفاس ، وعنيت بدراسة

الأدب العربى ، وتكتب إلى جريدة الشهاب بالجزائر مقالات طيبة فى الأخلاق والاجتماع .

السيدة خديجة المرينية

من أهل الرِّباط ، تخرجت فى مدرستها الحكومية وأقبلت على دراسة الأدب العربى حتى تسامت فيه ، ولها كتاب فى التدبير المنزلى ولعل لها غيره من المؤلفات

ولا نحاول هنا أن نستقصى الطبقة الظاهرة من متعلمات المغرب ، فحسبنا أن ندل عليها بهؤلاء . على أننا نقول : إن الفصل الحاسم بين العلوم الدينية والمدنية وفصم الأواصر بينهما ليس من شأنه أن يخرج المرأة الصالحة للحياة . فكل ما رُكب فى المرأة من عاطفة متوثبة ووجدان متأثر وحس دقيق إنما ينزع إلى الدين ويسعى إليه ويستنير به ، الدين وحده عصمة المرأة ومنار وجدانها ، ومثار الحنان والرحمة والبر فى نفسها ، ومعقد الشرف والأمانة من خلقها . فإذا فصمْت ما بينها وبينه من عروة وسددت ما بينهما من طريق ، فقد سلبت منها الجُنَّةَ الواقية وأوردتها المورد الوبئ . وقد عرف ذلك الافرنج فطبعوا البنت منذ حداثتها الأولى على غرار الدين وجعلوه مستقى خلقها ومصدر قوتها ومشكاة حياتها سواء فى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم وأشرافهم ودهماؤهم . وأى حصانة للمرأة أقوى من أن تراقب الله وتستمع قوله وتتلو آيَهُ ، وتمثل فى الصلاة بين يديه ، وتمتلئ مشاعرها بذكر جلاله وعزته ، وناره وجنته ، وما يظفر البررة الأخيار من قربه ومحبته

وإن من أوهن الرأى أن تحاول إصلاح البنت بقطع ما بينها وبين أمهاتها السالفات من سُنَنٍ وعادات ، وتدخلها فى غمار فئات من النساء ليس لها ما لهن من طبع وتكوين ، فانك بذلك تخرج المرأة الحائرة الثائرة المتمردة التى تزدرى الماضى ويزدريها المستقبل ، فهى هابطة بين القريتين ، لا شرقية ولا غربية وليس

لها سمة ولا شخصية . تحاول أن تحاكى المرأة الأوربية فيأبى عليها بُعد ما بين الفطرتين فتقنع من المحاكاة بظواهر ملْهية كل ما فيها من الأثر أنها تغرها من نفسها وتحرفها عن دينها وتفتنها عن الطريق القويم . وليس من الخير فى شيء أن تحمل المرأة الشرقية على نسيان ماضيها ، ولكن الخير كل الخير فى إصلاح ذلك الماضى وتهذيبه وإحكام الاعتصام به .

تلك كلمة لا نخص بها هذا الاقليم من العالم الإسلامى ، ولكننا نعم بها المسلمين فى أقطار الأرض ، فهم الآن على سَنَن واحد من الحيرة فى تعليم البنت وفصم ما بينها وبين الدين من صلة وأسباب ، ولو أنهم اختطوا لها النهج الواضح من تاريخ المرأة العظيمة فى الاسلام أيام كانت مناط الرحمة والود للأسرة ومغرس النبل والسمو للولد ومعقد الحمية والعصبية للعشيرة مع تزويدها بما تقتضيه حاجة العمران من مبادئ العلوم والفنون التى تدعم كيان المنزل وتقيم نظام الحياة — لو أنهم نهجوا لها هذا الطريق لأوجدوا منها المرأة التى تؤلف الأسرة السعيدة والأمة المجيدة والوطن العظيم

لقد خلقت المرأة لتكون قوة من قوى الوحى والالهام فى نفس الرجل ، فهى كالروح السارية تحرك الأحياء ولا تُرَى ، وكالعقل المنير يضىء الشعاب ولا يُحَس ، وكالكهرباء الدافعة تملأ الوجود ولا تُدرك . هى خَلْق قوام حياته الجود بالنفس والفناء فى سعادة الجماعة ، واحتمال الآلام المضنية والأهوال المَرُوعة فى راحة الزوج والولد ، وهى كعود الثقاب ينشر الضوء فى كل شىء ثم يحترق . تلك هى المرأة التى جعل الله السعادة بين شفتيها ، وجعل الجنة تحت قدميها ، وفرض لها من الطاعة فى رقاب الأبناء أضعاف ما فرض للاباء . هى سر عظمة الأمة ومبعث قوتها ومشرق صفوها وسعادتها. فإذا تنكبت تلك المَحجّة وانحرفت عن هذا السبيل فثارت على البيت والولد وانكشفت فى المجامع والأندية ، وانغمرت فى الملاعب والملاهى ، وراحت

تعلن عن نفسها بشقاشق القول وفضول اللسان ، فهنالك الويل والوبال ، وهنالك الفناء والدمار . ! ولا تقل إن مثل ذلك كائن فى بلاد المدنية الحديثة . ففى تلك البلاد خير وشر ، ومن شأن الجسم القوى أن تقاوم قوتُه ما قد يُلم به من ضعف وفساد ، فهنالك الخير يطوى الشر ويحمله ، وهنالك نار الجد تنفى زيف اللهو وتُحيله ، على أن كثيراً من كتّاب تلك البلاد ينظرون إلى ما أصاب المرأة من شطط واندفاع فيقولون إن هذا انتحار للأمة سريع الأجل ! فما بالك بمن يأخذ بذنَب الشر ويترك ناصية الخير ، فالحياة عنده لهو ولغو وضجة وإعلان

ألا فليعلم القوم أن المرأة قطب الحياة ، فإذا استقام استقامت ، وإذا تمايل اندكت ، وما قِوامه إلا الدين ، فهو الأساس الثابت والبناء المتين

مُعجَم

بما ورد فى تفاريق هذا الجزء من الأعلام وما يحتاج الى الشرح من الألفاظ[١]

الهمزة

أَبَجّ — الأبجّ الممتلئ ، والغليظ من العيدان

الأُبُلَّة — بلدة على شاطئ دجلة فى منعطف الخليج الذى يدخل مدينة البصرة وكانت من أعظم منازه الدنيا

أحَصّ — الأحص من الطير القليل ريش الجناح ومن الرجال القليل شعر الرأس

أحْوَى — الأحوى ذو الحوة وهى الحمرة المائلة إلى السواد والعرب تستحسن ذلك فى الشفاه وأنثاه حوّاء

أذربى — نسبة إلى اذربيجان وهى إقليم من أعظم أقاليم الفرس،قصبته تبريز

أُروم — جمع أرومه : الأصل

أَزَج — الأزج ضرب من الأبنية ، وباب الأزج محلة ببغداد

أُسَّى — جمع أسوة وهى القدوة من كل شىء

أشطّ — من الشَّطاط بفتح الشين المشددة وكسرها : الطول وحسن القوام

أشكل — الأشكل الذى يجمع بين الحمرة والبياض

أَغْمَات — اسم لمدينتين متقابلتين قرب مراكش

أَغَنّ — الأغن من الظباء الذى يخرج صوته من خياشيمه

أفيـاء — جمع فىء : الظّل

(١) أثبتنا الألفاظ فى هذا المعجم على صورتها من الكتاب ، ولم نراع فيها أصل الاشتقاق ليسهل الرجوع اليها

أقفزة　　جمع قفيز مكيال يسع ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف أو نصف الويبة

الإمامية　　فرقة من الشيعة ، وهم القائلون بإمامة اثنى عشر إماماً ، أولهم الإمام علىّ المرتضى كرم الله وجهه ، ثم ابنه الحسن المجتبى ، ثم أخوه الحسين شهيد كربلا ، ثم ابنه على السَّجاد زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه موسى الكاظم ، ثم ابنه على الرضا ثم ابنه محمد التقى ، ثم ابنه على النقى ، ثم ابنه الحسن الزكى ، ثم ابنه محمد الحجة ، وهو المهدى المنتظر عندهم . يقولون إنه دخل مع أمه وهو صغير سرداباً بالحلّة على القرب من بغداد ففقد ولم يعد ، فهم ينتظرونه إلى الآن ، وفى اعتقادهم أنه سيخرج إذا فشا الظلم وعمت الفتنة وفسد الزمان فيرد الناس إلى الهدى ويؤلف بينهم جميعاً

الباء

البَذَاذة　　سوء الحال ومنه فلان بذ الهيئة وباذها أى رثها.

بنان　　سمى بهذا الاسم ذكور وإناث ، ومن الذكور بنان المغنى ، ومن الاناث جارية الفضل بن العباس الهاشمى ، وكانت مغنية شاعرة

التاء

ترضخ　　من رضخ الحصى والنوى كسره

الثاء

الثَّنَايا　　جمع ثَنِيَّة : الطريقة فى الجبل

الجيم

الجِرَان　　مقدم عنق البعير من منحره إلى مذبحه

الجرائد — جمع جريدة وهى الخيل التى لا رَجَّالة فيها والبقية من المال

جَزُور — البعير أو هو خاص بالناقة المجزورة وجمعه جزائر وجزر

الجُمَان — اللؤلؤ أو حبات على شكله من الفضة

جَمَش — بفتح الميم مشددة ومخففة غازَل وداعب

الجُون — جمع جَوْن وهى من النبات الضارب إلى السواد لشدة خضرته والأحمر والأبيض والأسود ، ومن الإبل والخيل الأدهم أى الأسود

الحاء

حَسَك — نبات شائك شوكه ذو ثلاث شعب

حَصَان — المرأة العفيفة أو المتزوجة

الحَوْذَان — نوع من النبت ناضر الزهر مشرقه

حيازيم — جمع حَيْزوم : وسط الصدر ، أو ضِلَعُ الفؤاد ، أو ما اكتنف الحُلقوم من جانب الصدر

الخاء

خَنَث — الخنث التكسر والتثنى

الخَوَرْنق — قصر للنعمان بن المنذر بالحِيرة

خَيْف — الخيف كل هبوط وارتقاء فى الجبل ، وهنالك أخياف كثيرة : منها خيف مِنًى ، وخيف سلّام ، وخيف النَّعَم

الدال

دابق — قرية قرب حلب عندها مرج معشب نزه وبها قبر سليمان بن عبد الملك

دَبِيق　بلدة مصرية بين الفرَما وتنيس وكان ينسج بها صنف شائع من الثياب يسمى الديبقية

دَرَسَ　درس الرسمُ ودرسته الريح محته

دَنّ　إناء أطول من الحُب (الزير) يحفظ فيه الخمر ويحتفر له ويوضع فى الأرض إلى قرابة نصفه

الراء

رُزَام　وقد مرّت على المصحح مضمومة فى الطبع فلم ينتبه لها — صوت البعير الذى ثقل عن النهوض أو صوت الناقة اذا رئمت ولدها أى أدركها الحنان له

الرَّعيل　القطعة من الخيل أو مقدمتها

السين

سَرَارى　جمع سُرِّيّة وهى الأمة التى بوأتَها بيتاً وتسررها وتسراها اتخذها سرية

السَّرْو　شجر، وما ارتفع من الوادى

السَّعْدان　نبات شائك ترعاه الابل

السَّنَد　ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح

سَوَاهم　متغيرات الوجوه حزناً ودهشة

الشين

الشَّعانين　ومعناه بالعربية التسبيح ويسمى عيد الزيتونة وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ذكرى يوم ركوب المسيح لليعفور (الحمار) فى القدس ودخوله صِهيَون والناس يسبحون بين يديه

الصاد

الصَّالى من صَلَى اللحم اذا شواه أوصلا يده بالنار سخّنها أو ...ٍ النار قاسى حرها

صَرائم جمع صريمة أو صريم قطعة الرمل مُن الكثيب

الطاء

طَارمة من الطُّرْم وهو ضرب من الشجر

الطَّفلة الفتاة الرَّخْصة الناعمة

العين

عَبير العبير الزعفران أو أخلاط من الطيب

عَجْفَاء من العَجَف وهو الهزال

العُفْر جمع عفراء وهى من المواطن كل أرض بيضاء لم توطأ

العِلج الرجل من كفّار العجم

العَيْر حمار الوحش

عيسى باذ ضاحية من ضواحى بغداد الى الشرق منها ومعنى باذ بالفارسية عمارة فهى عمارة عيسى والمراد به عيسى بن المهدى وكانت اقطاعاً له

الغين

غَالِيَة الغالية ضرب من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن

اغتباق الاغتباق الشرب بالعشى والغبوق اسم للشراب

الغَوْر قاع كل شىء

الفاء

فىء الغنيمة والظل ينسخ الشمس

القاف

القائم بنيَّة كانت قرب سامرا من أبنية المتوكل

القِنِّينَة إناء من زجاج للشراب

قَهَارم جمع قَهْرَمَان وقهرمانة وهو المدبّر الحفيظ على ما تحت يده

قين القين الحدّاد

الكاف

الكَلْفَاء من الكَلَف وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم ولون بين السواد والحمرة

اللام

اللَّجُون من الابل الحَرُون

لَسَب يقال للعقرب اذا أنفذت إبرتها لسبت

اللَّيَاح قمر لَيَاح زاهر ناصع

الميم

متالِع المتالع مسايل الماء من المرتفعات

المثانى جمع مثنى وهو الوتر الثانى من أوتار العود

المُدَبَّرَة من الجوارى التى يقول لها سيدها أنت حرة بعد موتى وهى لا تباع ولا تورث ، ومثلها المدبَّر

مُزَنَّرَات لابسات الزنانير جمع زُنّار وهو ما يشد على وسط النصارى والمجوس

المِسْح الكساء من الشعر وجمعه أمساح ومسوح

المُسَهَّمة ثياب تشبه نقوشها السهام

المَطِيرَة — وقد صَفّها الطابع بضم الميم وسها عنها المصحح — قرية من نواحى سامَرّا ، وكانت من متنزهات بغداد

المِقْلَى آلة القلى أى الانضاج

المِهْرَجان — بفتح الميم — اليوم التاسع من شهر أيبب وهو سادس أيام ستة تقام فيها أعياد المهرجان وأصله عيد فارسى وعنهم أخذه القبط واتخذه العرب أيضاً موسماً يحاكون فيه الفرس وهم يتيمنون فيه باهداء الأترج والسكّر والنبق والسفرجل والعناب والتفاح
والمهرجان — بكسر الميم — احتفال الجمع وازدحامه

النون

نَبَطىّ نسبةَ الى النَّبَط وهم جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين

النَّظَّام ابرهيم النظام إمام المعتزلة وحجتهم واقدر أهل عصره فى الجدل والمنطق

نَمْتَار نجتلب المِيرة أى الطعام

نمرقة بتليث النون والقاف الوسادة أو الطَّنْفسَة

النَّيْروز وهو عيد الربيع وعيد السنة الجديدة عند الفرس وعنهم تناقله كثير من الأمم وهو ستة أيام وفى ليلته يقف بباب الملك فتى صبيح الوجه فاذا أصبح دخل عليه غير مستأذن فيقول له الملك من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولأى شىء وردت وما معك فيقول أنا المنصور واسمى المبارك ومن قِبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ثم يجلس وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الاسلام الحجاج بن يوسف الثقفى

الواو

وَشيجة	الوشيجة شجر الرماح واشتباك القرابة
الوَلاَء	المِلْك والمولى المالك والعبد والمعتِق والمعتَق
وهاد	جمع وهد ووهدة — الأرض المنخفضة

الياء

يَسْتَشرى	يشد غضبه
يلتدم	يلطم وجهه
يَلى	يتولّى الأمر

مراجع الكتاب

تلك جملة الكتب التى رجعت عليها فى تحرير هذا الجزء من الكتاب

التاريخ	المؤلف
تاريخ الأمم والملوك	الطبرى
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون
الكامل	ابن الأثير
مروج الذهب	المسعودى
النجوم الزاهرة	أبو المحاسن يوسف الأتابكى
كتاب بغداد	ابن أبى طاهر طيفور
تحفة الأمراء	الصابى
وفيات الأعيان	ابن خلكان
الفخرى	ابن الطقطقى
الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينورى
بيان المغرب	الأزهرى
الاحاطة فى أخبار غرناطة	لسان الدين بن الخطيب
نفح الطيب	المقرى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب	التميمى المراكشى
التشريع الاسلامى	
تاريخ التشريع الاسلامى	الخضرى
المدونة	مالك بن أنس
تيسير الوصول	الشيبانى
رد المحتار	ابن عابدين
الأدب والاجتماع	
الأغانى	أبو الفرج
الأمالى	أبو على القالى
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب	ياقوت الرومى

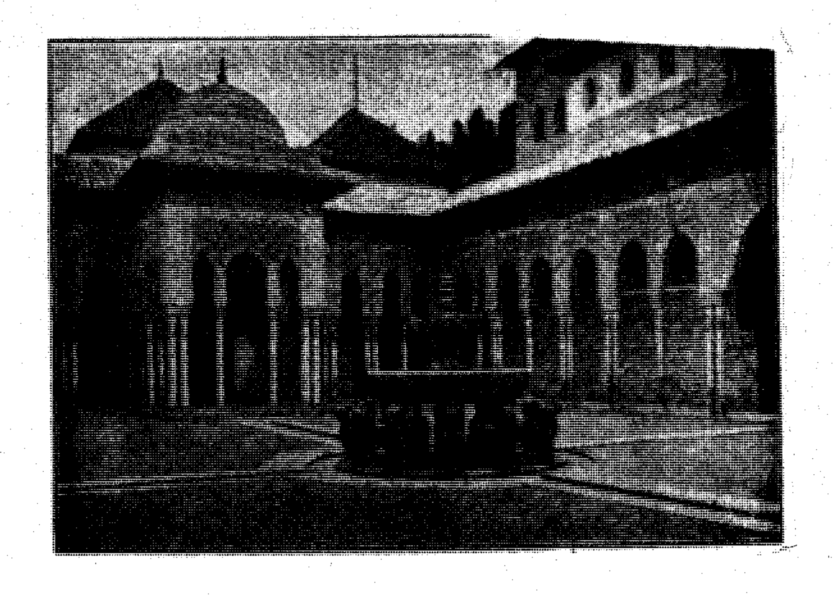
التـاريخ	المؤلف
المغرب فى حلى المغرب	ابن سعيد
مصارع العشاق	السراج
نهاية الأرب	النويرى
المحاسن والأضداد	الجاحظ
التـاج	الجاحظ
رسالة القيان	الجاحظ
المحاسن والمساوىء	البيهقى
شرح مقامات الحريرى	الشريشى
محاضرات الأدب	الراغب الأصفهانى
العقد الفريد	ابن عبد ربه
يتيمة الدهر	الثعالبى
قلائد العقيان	الفتح بن خاقان
الخطط	
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	
معجم البلدان	ياقوت
الأزمنة والأمكنة	المرزوقى
رحلة ابن جبير	
رحلة ابن بطوطة	
صفة المغرب	اليعقوبى
مسالك الابصار	ابن فضل الله العمرى
الفرق الاسلامية	
الفصل فى الملل والاهواء والنحل	ابن حزم
الملل والنحل	الشهرستانى
الفرق الاسلامية	من صبح الاعشى للقلقشندى

فهـــرس

الجزء الثالث من المرأة العربية

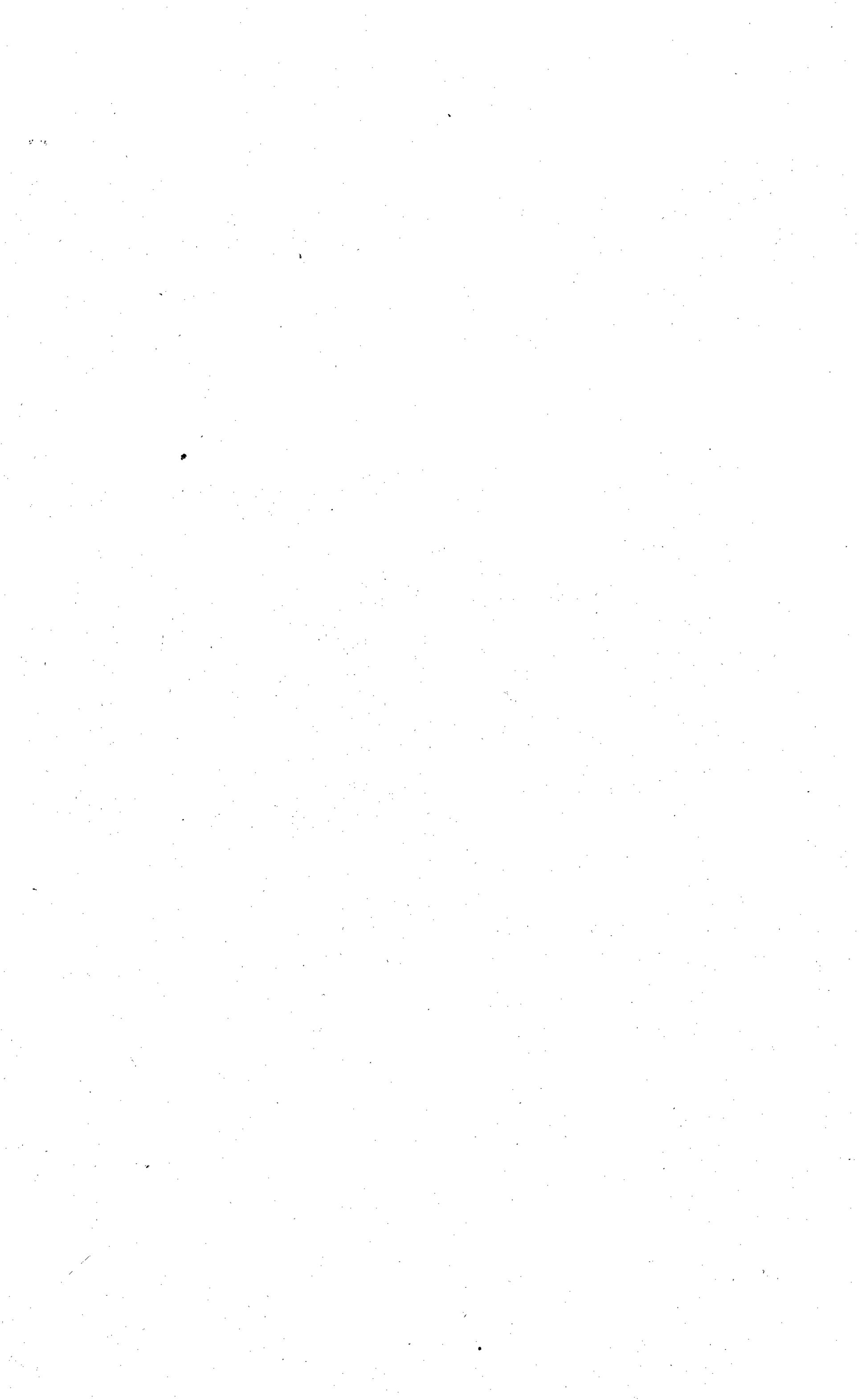
فى جاهليتها واسلامها

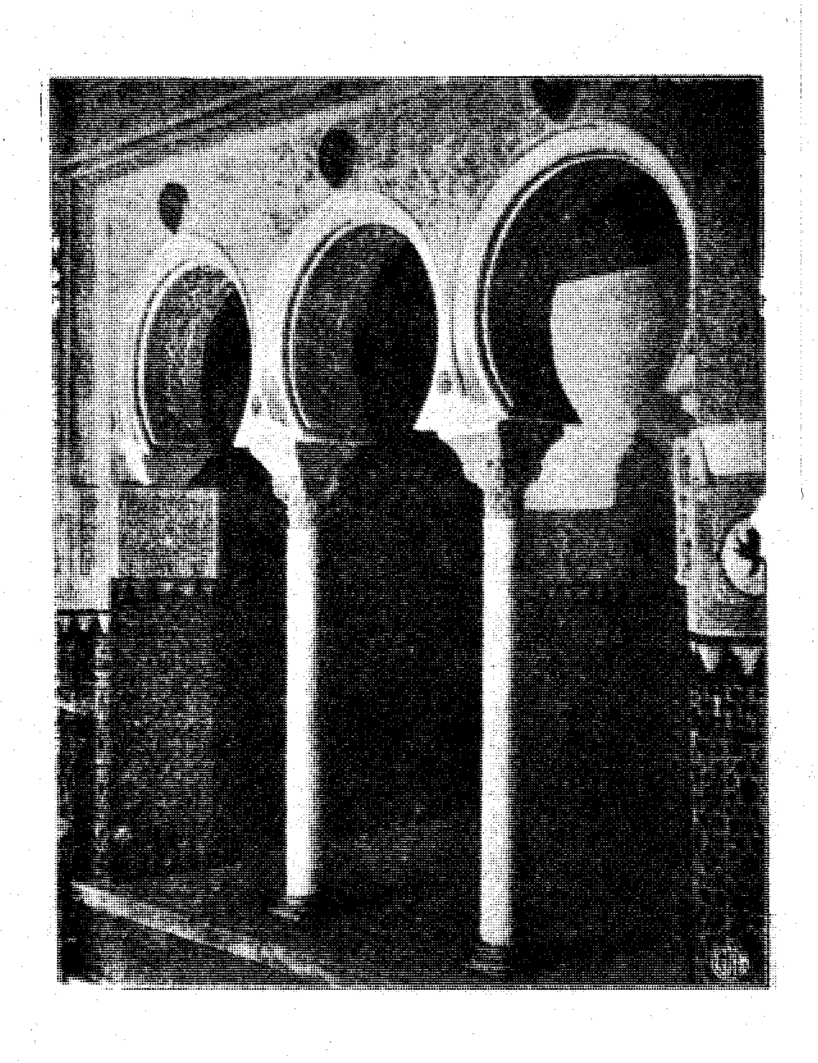




ساحة الأسود بقصر الحمراء بغرناطة

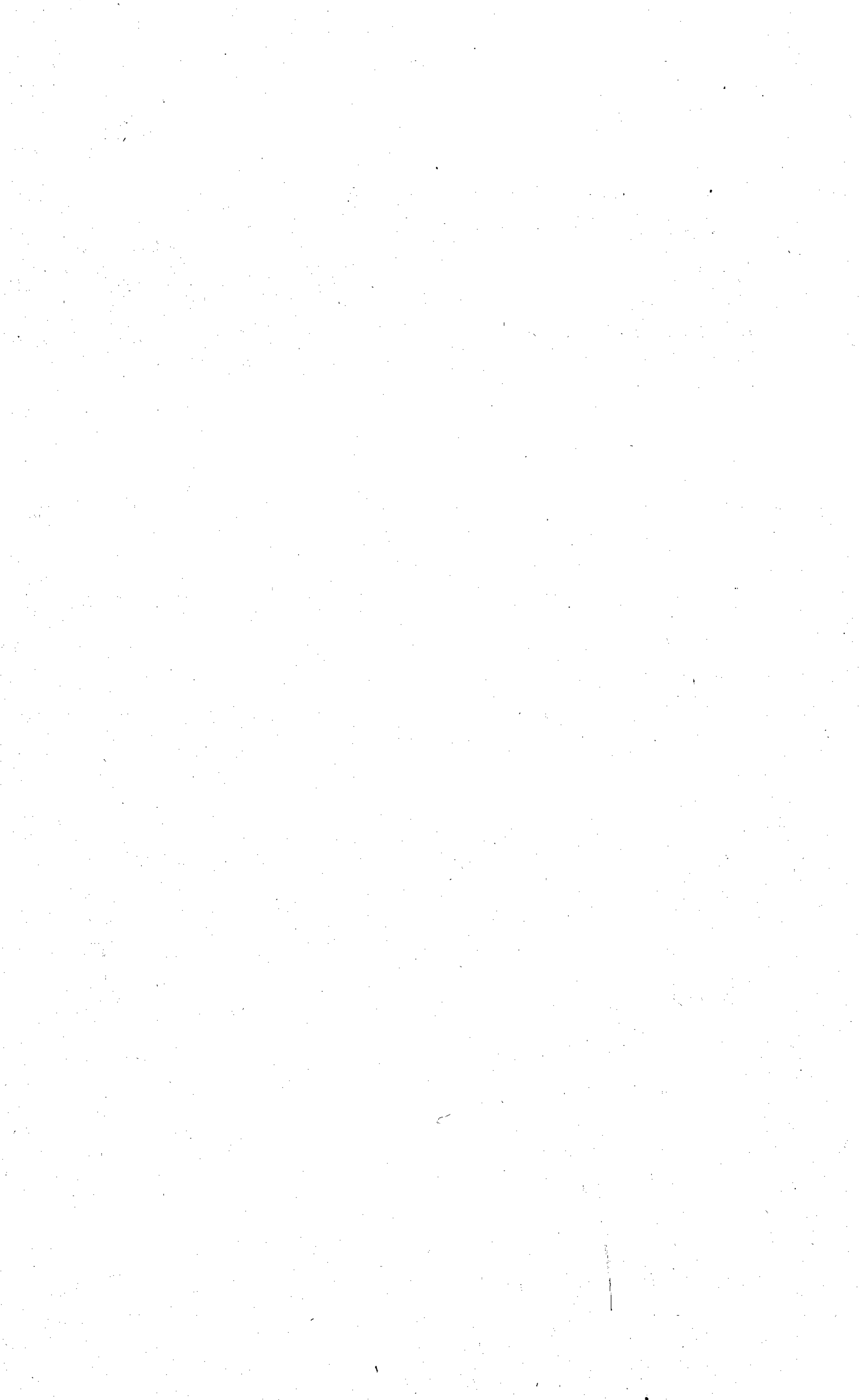
ص ١٣٢

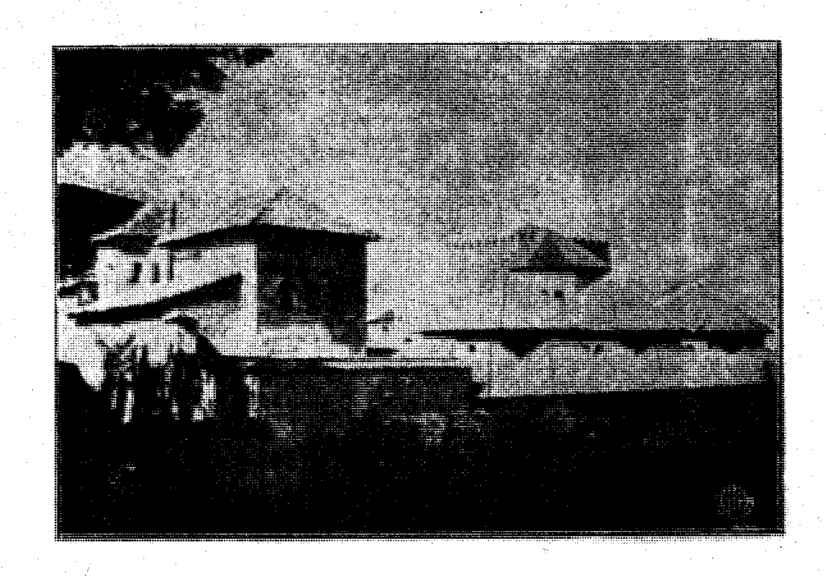




مخدع الملكة فى قصر أشبيله

ص ١٣٥





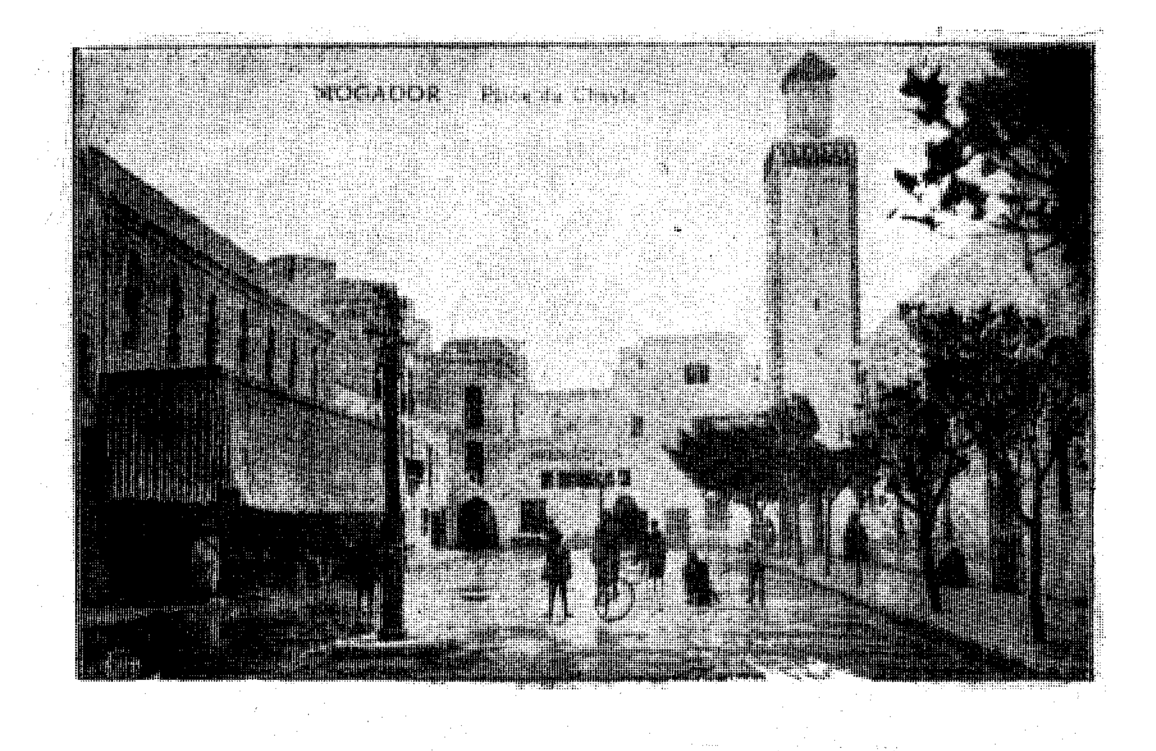
الجانب الشرقي من قصر الحمراء بغرناطة

ص ١٤٣





طائفة من السيدات المغربيات يشاهدن موكب (سلطان الطلبة) وهو موسم من مواسم المغرب يجتمع فيه الطلبة المغربيون وعلى رأسهم سلطانهم الذى اختاروه لهذا اليوم ويتولى ملك الطلبة ثلاثين يوماً تقدم له فيها كل مراسيم الملك وسمات السلطان وتكون ولايته هذه من قبل سلطان المغرب بمرسوم سلطانى وهنالك يتقبل (سلطان الطلبة) الهدايا والهبات من كل ذى شأن بهذه البلاد وكل ما يجمع ينفق على ترفيه الطلبة وتنزيههم وما يبقى من ذلك يوزع عليهم على سواء



ميدان (الصويرة) من ثغور المغرب على المحيط الاطلنطى
وتمتاز على ثغور المغرب بجودة هوائها وحسن منظر المحيط المنعطف عليها

ص ١٥٧

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه